النيل والمجتمع المصرى
فى عصر سلاطين المماليك

دكتور قاسم عبده قاسم

مدرس تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب – جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

١٩٧٨

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

إهداء

إلى أبي وأمي . . . عطاء أرض النيل الطيبة

قاسم عبده قاسم

محتويات الكتاب

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا يوجد نهر فى الدنيا له من الفضل على إقليم ، ما لنهر النيل من الفضل على مصر وساكنيها ، فالتربة المصرية — التى تعد من أخصب التربات فى العالم — منقول جلها أو كلها من فوق جبال الحبشة البركانية بواسطة فيضان النهر السنوى ، ومن ثم فإن وادى النيل فى شطره المصرى — من أسوان حتى البحر المتوسط — تكوين رسوبى حمله النهر من فوق جبال الحبشة ليلقيه فى الصحراء مكوناً ذلك الوادى الخصيب الذى شهد مولد حضارة من أعرق حضارات الأرض بل أعرقها ، صارت أماً ومنبعاً وأصلا لكل الحضارات التالية .

وكان واضحاً لساكنى مصر ومن خالطوهم أو جاوروهم أن هذه الحضارة المبكرة فى النضوج والرقى ازدهرت ونمت بفضل نهر النيل . لا غرابة إذن أن يصبح النهر محط اهتمام المصريين وغيرهم ممن سكن البلاد أو حكمها منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا فقد بدأت محاولات استكشاف النهر منذ بدأ إنسان مصر القديمة يتحول إلى الزراعة وبدأت أيضاً فى تلك المرحلة المبكرة محاولات تطويع النهر لإرادة الإنسان المصرى ، ونشأت فى ذلك العهد البعيد تلك المسألة الجغرافية المشهورة «مسألة النيل» أو «سر النيل »[1] واستمرت محاولة كشف النهر فى خط مواز لمحاولة تطويعه ، فمن رحلات المصريين القدماء ، فاليونان وأشهرهم بطليموس الجغرافى ، ثم العرب فى قرون الهجرة الأولى فكتاب العصور الوسطى ، تتابعت المحاولات ووضعت النظريات التى تشوبها الخرافات أحياناً كثيرة حتى جاءت المرحلة الحاسمة فى العصر الحديث إذ تعاقب المستكشفون من عهد محمد على حتى بداية القرن الحالى وأميط ذلك اللثام الذى كان يحجب النهر فى

---

(١) محمد عوض محمد ، نهر النيل ، ص ٣ . (الطبعة الخامسة)

مجراه الأعلى ومنطقة المنابع ، وانكشف « سر النيل » بعد عناء استمر عبر القرون والأجيال[١] .

على أن هذه الملامح الجغرافية (طبيعية كانت أو بشرية) ليست كل القصة فيما يتعلق بالنهر الخالد . فمن بديهيات الوجود المصرى أن هذه الواحة الفيضية الكائنة على أبواب أفريقيا الشمالية الشرقية وجدت بفضل النهر فيما عبر عنه هيرودوت بقوله « مصر هبة النيل » وما زالت تعيش بفضله ، تسعدها خيراته فى الفيضان السنوى ، وتزعجها نزواته إذا فاض فأغرق أو إذا غاض فأعطش ؛ ومن ثم قامت حول النهر وعلى ضفتيه أم الحضارات وقوامها الزراعة ، وانكب هؤلاء الزراع من أبناء الكنانة يشيدون حضارتهم التى تشهد على عظمتها تلك الآثار المادية واللامادية التى خلفتها فى عالم اليوم ، وقامت حول النهر ومحاولات تطويعه حياة شعب بأكمله فألبسوه ثوب القداسه فهو « الإله » فى عصور الوثنية ، ثم « النهر المؤمن » وهو من « أنهار الجنة » فى عصر التوحيد . . . وتتابع فصول التاريخ وعصوره على مصرنا الطيبة حتى تأتى تلك الطائفة من الغرباء المجلوبين عبيداً فى طفولتهم ليشبوا ويحكموا البلاد لفترة تزيد عن قرنين ونصف من الزمان فى تلك الحقبة التاريخية التى عرفت باسم « عصر سلاطين المماليك » وفى هذا العصر – كما فى غيره من العصور – ظل النهر قوام الحياة المصرية ، فرغم أن مصر قد عرفت « تجارة المرور » فى ذلك الوقت وجنت منها الأرباح الطائلة إلا أن النيل ظل – بفيضه وغيضه – المؤثر الأول والفعال فى حياة البلاد الاقتصادية فإذا كان الفيضان عالياً زرعت الأرض ، وجنى الناس المحصولات الجديدة « وخرجت تلك السنة على خير » على حد تعبير ذلك العصر . أما إذا نقص النهر عن حد الوفاء تجسد شبح المجاعة يتوارى خلفه شبح الوباء ، وانتشرت حالة « الموتان » ، واضطر الناس إلى أكل الكلاب والقطط والحمير ، وماجت البلاد بالفوضى والاضطراب . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى شهدت صفحة النهر احتفالات المصريين وأفراحهم ومتنزهاتهم التى شارك فيها الجميع ابتداء بالسلطان وكبار الأمراء ، وانتهاء بالشعب وأبنائه الذين دأب مؤرخو تلك العصور على تسميتهم « بالعامة » .

وكما كان النهر ملهماً حضارياً لشعبنا الطيب المكون من ملايين الزراع صناع

---

(١) المرجع السابق : ٨ – ٢٢

الحضارة والمدنية فى حياتهم السلمية . فقد شهدت مياه النهر كثيراً من معارك تأمين البلاد ضد الخطر الخارجى ، وخروج الأساطيل المملوكية تحمل الرجال والعتاد لتأديب من يعبثون بأمن البلاد .

وقد اخترت هذه الفترة لمعالجة موضوع « نهر النيل وأثره فى الحياة المصرية على عصر السلاطين المماليك » وكلى أمل أن يوفقنى الله إلى إلقاء بعض من الضوء على بعض جوانب حياة الشعب المصرى آنذاك ، وقد اخترت لنفسى منهجا آثرت فيه الالتزام بالموضوع غير متقيد بالتسلسل الزمنى وبناء على ذلك فقد قسمت البحث إلى أربعة أبواب يعالج كل منها موضوعاً مستقلا ، ثم ألحقتها بثبت بسنوات المجاعة والوباء طوال عصر سلاطين المماليك . هذا بخلاف الخاتمة التى تحوى أهم ما أظن أننى وفقت إلى استخلاصه من نتائج .

فالباب الأول : يعالج الفيضان وأهميته بالنسبة للأرض الزراعية ومواعيده ومناسيبه ثم يتحدث عن نظام الرى والزراعة متطرقاً إلى وسائل ضبط النهر من سدود وترع وقناطر وما إلى ذلك ويناقش كيفية بناء وصيانة هذه الجسور . . . كما تناولت فى هذا الباب نظام العمل فى السدود والقناطر والخلجان . ومن ناحية أخرى تكلمت عن طريقة قياس الزيادة وإعلانها ، وتلك المهرجانات الضخمة التى تصحب الاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج والأعياد الأخرى المرتبطة بالنهر وغير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية المرتبطة بنهر النيل . . . وقد تناولت أيضاً أثر فيضان النهر السنوى — مؤشر الرخاء أو الشقاء — على الحياة السياسية على أساس أنه لا يمكن التحديد بشكل قاطع بين الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية فكل منها تؤثر فى الأخرى بشكل يصعب تحديد مداه .

وفى الباب الثانى : تناولت علاقة النهر بالمجاعات والأوبئة التى ألمت بالبلاد فى عصر سلاطين المماليك مع عرض تلك المجاعات والأوبئة ، وما كانت تبدو فيه البلاد آنذاك من صورة محزنة ، وما كان لها من تأثيرات فى حياة الناس اليومية ، مع توضيح بعض الأسباب الأخرى (غير فيضان النيل) التى كان ينشأ عنها الاضطراب الاقتصادى كما تناولت موقف « الدولة » — ممثلة فى سلاطين المماليك وكبار الأمراء من أصحاب

المناصب — من هذه الأزمات وكيف أن وسائلهم لعلاجها لم تخرج كثيراً عن نطاق التفكير الدينى والأخلاقى .

أما الباب الثالث : فقد تحدثت فيه عن أهمية نهر النيل كطريق للتجارة والمواصلات بين أنحاء البلاد المصرية ، وكيف أن القاهرة كان لها ميناءان إحداهما على ساحل الفسطاط والثانية على ساحل بولاق . كما تحدثت عن أهم موانئ البلاد على النهر فى عصر المماليك . . . بجانب ما شهده النهر من استعراضات لقطع الأسطول بعد الانتهاء من عملها وتجهيزها « برسم الغزو والجهاد ، مع تناول الأهمية العسكرية لنهر النيل ، وكيف أنه استخدم كطريق أساسى وهام لنقل الحملات العسكرية والتجريدات لتأمين حدود البلاد ضد أخطار الأعداء فى الخارج أو لإقرار الأمن فى الداخل عن عن طريق حملات تأديبية ضد النوبة والعربان .

ويتناول الباب الرابع : ما جاء فى كتابات المعاصرين (لعصر سلاطين المماليك بطبيعة الحال) عن نهرنا العظيم ، وآثرت تقسيم هذا الباب إلى أقسام ثلاثة : يختص أولها بما جاء فى مؤلفات المؤرخين والجغرافيين فى العصور الوسطى ونصيب هذا النهر الخالد من القصص الدينى والخرافات والأساطير فى كتاباتهم . ثم ما كتبه هؤلاء عن مشاهداتهم الشخصية وعن النهر « وفضائله » والحيوانات المائية التى تعيش فيه . وفى القسم الثانى نقلت بعض النماذج الشعرية والنثرية التى تعكس ما كان للنهر من مكانة سامية فى قلوب ساكنى مصر ، وتوضح كيف أنهم خاطبوه مخاطبة العاقل ورحبوا به به وأحبوه وعاتبوه، وأنزلوه تلك المنزلة السامية من نثرهم وأدبهم، ويتناول القسم الثالث ما كتبه الرحالة — وما أكثرهم فى ذلك العصر ضيوفاً على بلدنا الطيب — عن النهر العظيم ولما كنت أخشى الوقوع فى منزلق التكرار الممل فقد آثرت اختيار اثنين من الرحالة المسلمين ومثلهما من الرحالة المسيحيين الغربيين نموذجاً يدل على ما كتبه رحالة ذلك العصر .

وفى آخر البحث ألحقت محاولة لثبت بالمجاعات والأوبئة طوال العصر ، ورغم أن كلا منها تفاوتت فى مدى خطورتها وحدة فتكها بالناس ، فإنها فى النهاية كانت دليلا على أن الشعب الزارع بانى الحضارة والمدنية كان فريسة للمجاعات والأمراض

الوبائية طوال ذلك العصر الملىء بمظاهر الفخامة والثراء ، وبينما كانت مصر تقسم أرضها إلى أربعة وعشرين قيراطاً يتقاسمها الحكام ، يظل القيراط الخامس والعشرون « وهو الصبر على البلاء من نصيب الشعب » فى مملكة السماء[1] .

واخيراً فإننى يجب أن أتوجه بالشكر والعرفان بالجميل للأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ كرسى العصور الوسطى بجامعة القاهرة الذى ساعدنى كثيراً بما قدمه لى من نصائح وتوجيهات وارشادات وأرجو الله أن أكون قد وفقت لإضافة بعض الجديد فى ميدان ما يزال فى حاجة إلى المزيد من الجهود المخلصة .

دكتور قاسم عبده قاسم

الهرم : ٨ أبريل سنة ١٩٧٨

---

(١) حسين فوزى ، سندباد مصرى ، ص ٢٠٧ .

الباب الأول

النيل والحياة الزراعية

الفيضان – نظام الرى والزراعة – وسائل ضبط النهر – مقاييس النيل – طريقة قياس الزيادة و إعلانها – احتفالات وفاء النيل والأعياد الأخرى كمظهر للحياة الاجتماعية – أثر فيضان النيل فى حياة البلاد السياسية .

الحضارة المصرية عبر كل العصور حضارة نهرية ، قامت أساساً على وجود النهر ، فمن المعلوم أن وادى النيل فى شطره المصرى عبارة عن تكوين فيضى من ترسيبات الطمى الذى يجلبه النيل فى فيضانه السنوى ، ومن ثم كانت الزراعة وما تزال إلى حد كبير عصب الاقتصاد القومى المصرى ، ولما كانت الزراعة تعتمد على مياه النهر اعتماداً كلياً (لأن أمطار مصر شتوية قليلة ولا يمكن الاعتماد عليها سوى فى زراعة محاصيل شتوية بسيطة على السواحل الشمالية الغربية) فإنه يجدر بنا أن نبدأ هذا البحث بالحديث عن الفيضان السنوى لنيلنا العظيم .

ومن المعلوم أن التربة المصرية « تربة منقولة » فمعظمها – إن لم تكن كلها – نتيجة تراكم الرواسب النيلية . ومما سبب غنى الأرض المصرية وخصوبتها أن التربة تتجدد كل عام ، فإذا استنفدت الزراعة ما فيها من المواد المخصبة عوض هذا الفقد أو بعضه ما يأتى به النيل فى العام التالى[1] وقد شغلت مسألة مصدر مياه النيل إبان الفيضان أذهان المفكرين زمنا طويلا ، وعلى كل حال فان ارتفاع ضفتى النهر عن منسوب المياه فى المجرى نفسه كان يحول دون أن تغمر المياه المزارع على جانبى النهر ، ولم يكن ذلك يحدث إلا أثناء الفيضانات العالية ، وبخلاف ذلك كانت الأرض الزراعية المصرية تروى عن طريق نظام محكم ومتشعب من السدود والترع والقناطر وسنعرض لذلك تفصيلا فى الصفحات التالية .

---

(١) محمد عوض محمد ، نهر النيل ، ص ٢٦٥ – ٢٧٦ (الطبعة الخامسة) .

وتبدأ زيادة نهر النيل عادة فى شهر بؤونة من شهور القبط ، وتستمر طوال شهرى أبيب ومسرى وإذا كان النيل زائداً ظل طوال شهر توت[١] وتبدأ مياه الفيضان فى الانحسار عن وجه الأرض فى عشرين بابه ، أى أن مدة الفيضان حوالى ثلاثة شهور وخمسة وعشرين يوماً ، وتلاحظ بداية الفيضان فى أسوان[٢] .

وقد حاول بعض كتاب ذلك العصر (عصر سلاطين المماليك) ربط فيضان النيل بحركة الشمس والقمر فى البروج الفلكية ، معتقداً أن هناك علاقة ما بين تحركات الأبراج الفلكية ومقدار زيادة نهر النيل ، فيقول المنوفى صاحب كتاب « الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد » « ... إذا أردت أن تعرف النيل يعنى زيادته ونقصانه فى أى سنة شئت ، فتعتبر ذلك بالقمر عند نزول الشمس برج الحمل ، فإن كان القمر فى برج الحمل أو الأسد أو القوس فهذه بروج نارية تدل على قلة الماء ونقصانه ، وإن كان القمر فى برج الثور أو السنبلة أو الجدى فهؤلاء بروج ترابية يكون النيل وسطاً ، وإن كان القمر فى برج السرطان أو العقرب أو الحوت فهذه بروج مائية يكون النيل كثير الرى ويخشى على الأرض تستبحر كثرة الماء ، وإن كان القمر فى برج الجوزاء أو الميزان أو الدالى فهؤلاء بروج هوائية يكون النيل كثير المنافع . . . »[٣] .

وقد لاحظ مؤرخو العصور الوسطى أن نهر النيل يخضر ماؤه مع بداية الزيادة ، وهو ما كانت عامة أهل مصر فى ذلك الزمان يعبرون عنه بقولهم « توحم النيل » وقيل إن مياه النهر لا تكون صالحة للشرب آنذاك وفى رأيهم أن السبب فى ذلك هو أن الوحوش فى أعالى النيل ولاسيا الفيلة كانت تهرب من شدة الحر إلى البحيرات فى أعالى النيل وترقد فيها وينتج عن ذلك أن يتغير لون المياه ليميل إلى الخضرة ، وتأتى مياه الفيضان الجديدة لتدفع أمامها بهذه المياه المخضرة ، وتليها مياه الفيضان الحمراء ثم المكدرة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٢ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٥٨ ، المحلى : مبدأ النيل على التحرير ص ٥ — ٦ (مخطوط) ويجدر بنا أن نلاحظ أن جميع التواريخ المتعلقة بأحوال النيل والزراعة وفقاً للتقويم الشمسى (الشهور القبطية) ويرجع ذلك إلى عهد الفراعنة إذ سارت الدورة الزراعية المصرية وفقاً للتقويم الشمسى .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٥٤ .

Encyclopaedia of Islam : Art Egypt.

(٣) المنوفى : الفيض المديد ص ١٧ — ١٧ (مخطوط) .

مما شابها من الصخور وفتاتها المتساقط تجرفه مياه الأمطار من فوق جبال الحبشة[١] .

وكان فيضان النيل السنوى محط اهتمام كل المصريين على اختلاف طبقاتهم ، يرقبون ميعاد مجيئه ، ويحسبون حسابه فإذا حدث أن جاء فيضان النهر مبكراً عن موعده أو تأخر عن ميعاد الوفاء عد ذلك من النوادر الجديرة بالتسجيل وربما صنفوا له الأغانى والأشعار . وتمتلئ مؤلفات عصر المماليك بالكثير من الأمثلة التى تؤيد ذلك فقد حدث سنة ٧١٧ هـ على سبيل المثال أن كان وفاء نهر النيل فى التاسع والعشرين من مسرى من شهور القبط « . . . وما وقع ذلك فى هذا العصر . . . »[٢] كذلك حدث أن أوفى النهر سنة ٧٣٢هـ قبل عيد النيروز بثلاثة أيام « ... ولم يحدث هذا من سنين ... »[٣] . وفى سنة ٩٢٢هـ أوفى النيل فى السابع والعشرين من شهر أبيب « . . ولم يحدث ذلك من مدة طويلة . . . » فصنف مناديو البحر (المختصون بإعلان الزيادة) هذه الكلمات « النيل أوفى فى آبيب ، خُش ياحبيب ، وقد بقينا فى هنا ، يا فرحنا ... » كما صنفوا كلمات أخرى غير هذه[٤] .

هذا عن موعد الفيضان ، أما مناسيبه فينبغى أن نلاحظ حقيقة هامة وهى : أن المنسوب الذى كان يعتبر كافياً للرى فى بداية العصر المماليكى ، لم يعد يعتبر كذلك فى أواخر ذلك العصر ، ويرجع ذلك إلى عاملين هما :

أولاً : ارتفاع منسوب الأرض على ضفتى النهر بسبب تراكمات الطمى المجلوب مع الفيضان السنوى للنهر .

ثانياً : إهمال صيانة شبكة الجسور والترع والقناطر التى عن طريقها كانت تروى الأراضى الزراعية القريبة من مجرى النهر والبعيدة عنه على حد سواء ، ولاسيما فى الفترة الأخيرة من حكم سلاطين المماليك نتيجة للفوضى والفتن وحروب الشوارع التى أشعلتها طوائف المماليك خاصة بعد انحلال نظام تربية المماليك ، وازدياد عدد المماليك

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٦٠ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٦٤ (ط. دار الكتب) .
(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣ ص ١٠٣ — ١٠٥ (مخطوط) .
(٣) تاريخ ابن الوردى جـ٢ ص ٣٠٠ .
(٤) ابن أياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٠٠ (نشر د. محمد مصطفى) .

الجلبان[١] وما سببوه من متاعب واضطرابات حتّى صار السلاطين ألعوبة فى أيديهم .

وعلى كل حال كان بلوغ الزيادة فى نهر النيل تمام الستة عشر ذراعـًا ، هو علامة الوفاء ، التى عندها يستحق الخراج وينقل القلقشندى عن المسعودى أنه إذا أتم النيل خمسة عشر ذراعـًا ، ودخل فى ستة عشر ذراعـًا كان فى ذلك صلاح لبعض الناس ، ولا يستسقى فيه ، وينقص خراج السلطان ، وإذا أتمت الزيادة الستة عشر ذراعـًا وجب أداء خراج السلطان ، وتسمى زيادة الستة عشر ذراعاً هذه « بماء السلطان » إذ عندها تجبى الدولة خراجها رغم أن ربع الأرض يتعرض مع زيادة الستة عشر ذراعـًا للعطش ومن ثم ينعدم المرعى ، ويقرر المسعودى أن أتم الزيادات نفعـًا للبلاد هى نسبة السبعة عشر ذراعـًا لأنها تروى جميع البلاد ، وإذا زادت عن ذلك لتبلغ الثمانية عشر ذراعـًا استبحر ربع أراضى البلاد (أى غطته المياه حتى يفوت أوان الزرع) . ويقرر القلقشندى أن هذا التقسيم لمناسيب الفيضان ظل ساريـًا حتّى بداية القرن الثامن الهجرى تقريباً[٢] (الرابع عشر للميلاد) ويبدو من تتبع أخبار النهر التى أوردها مؤرخو العصر المماليكى ، أنه حتى حوالى منتصف القرن الثامن الهجرى تقريباً كانت الزيادة التى تتعدى ثمانية عشر ذراعـًا تتسبب فى غرق الأراضى الزراعية ، وإذا قلت عن ستة عشر ذراعاً شرقت البلاد مما يؤكد التقسيم الذى أورده القلقشندى لمناسيب النهر أثناء الفيضان ومدى ملائمتها لحاجة الزراعة ، ففى سنة ٧٠٩هـ انتهت زيادة النيل إلى خمسة عشر ذراعاً وسبعة عشر إصبعاً فشرقت البلاد[٣] وفى سنة ٧١٧هـ أكمل النيل ثمانية عشر ذراعـًا وستة أصابع فغرقت كثير من الدور والأقصاب والبساتين، وتلفت كثير من الزراعات[٤] كذلك حدث سنة ٧٢٣هـ ، ٧٢٤هـ أن زادت مياه

---

(١) الجلبان هم المماليك الذين دأب سلاطين المماليك منذ القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع والعاشر الهجرى) على شرائهم كباراً فى سن البلوغ مما جعلهم لا يدينون بالولاء لأستاذهم، بل أصبحوا خطراً على شخصه، وقد تسببوا فى كثير من الفتن والقلاقل أواخر عصر المماليك (سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٧٢ — ١٧٣) .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٠ .

(٣) ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٠ (ط بولاق)

(٤) النويرى : نهاية الأرب ج ٣ ص ١٠٣ (مخطوط) .

الفيضان عن ثمانية عشر ذراعاً فأغرقت الكثير من الدور والزراعات والأقصاب والسواقى، وصارت المراكب لا تجد براً تضرب فيه الوتد من قوص إلى القاهرة[١].

وقد أورد عبد اللطيف البغدادى صاحب كتاب « الإفادة والاعتبار » والذى ألفه بالقاهرة سنة ٦٠٠ ﻫ تقسيماً طريفاً للفيضانات — وبديهى أن النسب التى أوردها ظلت سارية على الأقل فى الفترة الأولى من عصر سلاطين المماليك — وقد جعل للفيضان نهايتين وهما نهاية الضرورى ونهاية الإفراط ، وبينهما بدايتين هما بداية الضرورى وبداية الإفراط؛ وتفصيل ذلك أن **نهاية الضرورى**: هى الحد الأقصى للماء اللازم لرى البلاد وهى ثمانية عشر ذراعاً أما **نهاية الإفراط** : ومعناها الزيادة المفرطة إلى الحد الأقصى الذى تصل إليه مياه النهر وهى عشرون ذراعاً تصل فى أحيان قليلة إلى إحدى وعشرين ذراعاً ، وأما ما أسماه **بداية الافراط** : فهى ما قل عن نسبة الستة عشر ذراعاً وهى بداية الضرر الناتج عن نقص مياه الفيضان ، ويقول عبد اللطيف البغدادى إن الستة عشر ذراعاً هى « ماء السلطان » الذى عنده يستحق الخراج ، وتروى هذه النسبة نصف الأراضى الزراعية فى مصر ، وتُغِل ما يكفى أهل البلاد قوت عامهم فى سعة ، ويتم رى باقى البلاد بما يزيد عن الستة عشر ذراعاً حتى إذا وصلت المياه إلى ثمانية عشر ذراعاً رويت كل الأراضى وأنتجت ما يكفى أهل البلاد سنتين فأكثر ، أما إذا نقصت مياه النهر عن الستة عشر ذراعاً فإنها لا تكفى لرى كل الأراضى ويقال حينئذ « أن البلاد شرقت »[٢] .

ومهما يكن من أمر فقد ظلت هذه النسبة لمياه الفيضان — والتى تتفق إلى حد كبير مع ما أورده القلقشندى نقلا عن المسعودى — تعبر عن واقع الأمر على الأقل حتى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) وكان أهل ذلك الزمان يسمون الذراعين الثالثة عشر والرابعة عشر « منكراً ونكيراً » لأن الاستسقاء كان يحدث عندهما[٣] وثمة

---

(١) تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢٧٦ ، المقريزى : السلوك ج ٢/ ق ١ ص ٢٥٨ .

(٢) عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار : ص ١٠٥ — ١٠٧ ، (شرقت الأرض مشتقة من قولهم « شرقت الشمس » إذا طلعت وظهرت وشرقت اللحم إذا شررته ليجف ، ولما كانت الأرض تتعرض لأشعة الشمس إذا لم يغطها النيل أبان الفيضان قيل شرقت الأرض ولم تتغط ولم يغطها النيل : نفس المرجع ص ١٠٧) .

(٣) المقريزى : الخطط ج١ ص ٥٨ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٠ ، رحلة ابن بطوطه ص ٧٨ .

تقسيم آخر لمناسيب الفيضان أورده القلقشندى يعبر عن مدى ملاءمة مياه الفيضان فى هذه المناسيب لحاجة الرى والزراعة فى أيامه (القرن التاسع الهجرى) إذ يقول :

فيضانات النيل أقسام ثلاثة وهى :

١ — متقاصرة : وهى ستة عشر ذراعاً فما حولها (أى أن مياه النهر عند هذا المنسوب تقصر عن رى جميع البلاد) .

٢ — متوسطة : وهى سبعة عشر ذراعاً فما حولها .

٣ — عالية : وهى ما فوق الثمانية عشر ، وربما زادت إلى العشرين .

ويقرر المؤرخ تقى الدين المقريزى (ت٨٤٥هـ) أن السبعة عشر ذراعاً وما فوقها أصبح يخشى معها أن يحل الغلاء ويهلك الناس . بل أنه يقول إن الماء لم يكن يعم كل الأراضى إذا بلغ تسعة عشر ذراعاً فأكثر بعد بداية القرن التاسع الهجرى ، ويعزو ذلك إلى فساد الجسور وإهمالها[١] ، ويتضح من كلام أحمد بن محمد المنوفى (ت٩٣١هـ) أن بعض الأراضى لم تعد تروى من عشرين ذراعاً فى القرن العاشر الهجرى (أواخر عصر المماليك)[٢] .

وخلاصة القول أن الستة عشر ذراعاً — المعبر عنها « بماء السلطان » — ظلت علامة الوفاء طوال عصر سلاطين المماليك وذلك بالرغم من أنها لم تكن كافية لرى كل الأراضى الزراعية ، ومع مضى السنين أصبح الرقمان سبعة عشر ذراعاً ، وثمانية عشر ذراعاً رقمين عاديين ، بينما كان الرقمان خمسة عشر ذراعاً ، وثمانية عشر ذراعاً يمثلان النقطة الحرجة التى يصل إليها منسوب النيل هبوطاً أو ارتفاعاً ، بل أن بعض ، الأراضى لم تكن تروى إلا من أكثر من عشرين ذراعاً فى أواخر ذلك العصر ، ويمكن إرجاع ذلك لسببين رئيسيين هما : (١) ارتفاع مستوى سطح الأرض على جانبى النهر نتيجة للتكوينات الرسوبية عن طمى النيل المجلوب سنوياً مع مياه الفيضان[٣] (٢) فساد الجهاز الإدارى الذى أدى بدوره إلى إهمال مرافق الرى والزراعة كالجسور

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج٣ ص ٣٠٠ .

(٢) المقريزى : الخطط ج١ ص ٥٨ — ٦٠ .

(٣) المنوفى : الفيض المديد ص ٤٠ (مخطوط) .

والترع والقناطر فى الطور الأخير من ذلك العصر نتيجة لكثرة الفتن والإضرابات السياسية .

نظام الرى والزراعة :

ننتقل بعد ذلك إلى مناقشة نظام الرى ؛ فلم يكن النهر وقت الفيضان يغمر ضفتيه الحاليتين بالمياه ولكن هذه المياه كانت تصل إلى الحقول والمزارع القريبة من مجرى النهر والبعيدة عنه عبر نظام محكم من الترع والقنوات وحين يصل إلى قمة ارتفاعه يسارع المماليك إلى وضع الحراس على ضفتيه فى جماعات عدد كل منها عشرة مماليك ولهم علم ومهمتهم حراسة المصابّ المعروفة وفتحها الإدخال الماء إلى ريف البلاد[1] ولم يكن يسمح لغيرهم بإحداث الفتحات فى الترع لرى الأرض . ولما كانت الأرض الزراعية فى مصر يتباين سطحها ما بين عال لا تكفيه فى الرى الفيضانات العالية ، ومنخفض يروى من الزيادة اليسيرة فإن رى هذه الأرض كان يتم على مراحل أربع وهى كما يلى :

١ — عند وفاء النيل (تمام الزيادة ستة عشر ذراعاً) — ويحدث ذلك غالباً فى شهر مسرى — يفتح سد خليج القاهرة حتى يجرى الماء فيه إلى حد معلوم ويقف حتى يروى كل الأراضى التى تحت هذا الحد .

٢ — وفى يوم النيروز (أول توت) يفتح الحد الثانى الذى وقفت عنده المياه ليروى الأراضى تحت هذا المنسوب وتسمى السدود التى تقطع فى هذا اليوم باسم « النيروزية » .

٣ — وتأتى المرحلة الثالثة فى « عيد الصليب » (بعد النيروز بسبعة عشر يوماً) فيجرى الماء إلى حد معين حتى يروى ما تحت هذا المنسوب من الأراضى .

٤ — وتكون المرحلة الرابعة والأخيرة حين تفتح سدود بقية الترع والخلجان التى تحت هذا المنسوب الأخير لمياه النهر وبذلك يتم رى بقية الأراضى الزراعية ،

---

(١) Dopp : L'Egypte au Commencement du quanziéme siecle, : p. 21.

ويسير النهر شمالا بما تبقى من مياه الفيضان ليصبها فى البحر المتوسط[١] .

وفى وقت الفيضان بعد فتح سدود الترع والخلجان وفقاً للمراحل الأربع السابق ذكرها ، ينتشر ماء الفيضان ويغطى وجه الأرض التى تبدو آنذاك وكأنها بحر حقيقى تبدو القرى فيه كأنها جزر لا يمكن الوصول إليها والتنقل فيها بينها الا بواسطة القوارب أو فوق ظهور الجواميس وفوق الجسور الممتدة ما بين أجزاء البلاد[٢] وحينئذ يُنذر الحكام المنوبون بحراسة هذه السدود عن طريق علامات النيران ليلا فيسدون الفتحات التى أحدثوها من قبل ، وإذا تكامل رى ناحية من النواحى قطع أهلها الجسور المحيطة بها — لتصريف المياه الفائضة عن حاجة الرى — من أمكنة يعرفها خولة البلاد ومشايخها ويتم ذلك فى أوقات يحددونها[٣] وحين تنصرف المياه عن وجه الأرض تنتشر المساحات السوداء الشاسعة على مرمى البصر تغطى آلاف الأفدنة وتترك الحقول هكذا حتى تقارب الجفاف ويستقر الطمى بما يحمله من عناصر الخصب والنماء وتحرث الأرض وهى ما تزال رطبة لترمى فيها البذور وتزرع بطريقة بدائية للغاية[٤] ويحدثنا عبد اللطيف البغدادى بأن الأرض كلها تزرع ولا يراح منها شىء[٥] . ومن الطبيعى أن هذه الملاحظة عن أحوال الزراعة فى أواخر العصر الأيوبى تنسحب أيضًا على ما كان يحدث فى عصر سلاطين المماليك .

ويتضح مما سبق أن الطريقة السائدة فى الرى آنذاك كانت طريقة « رى الحياض » — وهى الطريقة التى ظلت سائدة حتى عصر محمد على ثم قضى بناء السد العالى عليها تماماً وتحولت كل الأراضى الزراعية إلى نظام « الرى الدائم » — وبعد جنى المحصول تظل الأرض جافة وخالية فى انتظار فيضان جديد يحمل إليها عناصر الخصب والنماء، وليس معنى ذلك أن الزراعة فى مصر لم تعرف نظام الرى الدائم فى ذلك العصر ،

---

(١) المقريزى : الخطط حـ١ ص ٢٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى حـ٣ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

(٢) المقريزى : المرجع السابق نفس الجزء ص ٦٠ ، الكتبى : مباهج الفكر جـ ١ ق٢ ص ٨٦ ، النويرى نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٦٤ ، Dopp : L'Egypte au Com, p. 21.

(٣) النويرى : المرجع السابق نفس الجزء والصفحة ، المقريزى نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٤) Enc. of Islam : Art Egypt.

(٥) عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار ص ٣ .

فالواقع أن بعض الأراضى تمتعت بنظام الرى الدائم وذلك لقربها من مجرى النهر أو فروعه مثال ذلك أرض الدلتا الواقعة بين فرعى النيل والتى كانت تروى عن طريق ألف ساقية كانت ترفع المياه لرى ريف الجزيرة طوال العام . وكانت هذه الجزيرة تمون القاهرة بحاجاتها من الخضروات والبقول[١] .

وفى بعض الأحيان كانت الأرض تزرع قبل أوان الزرع فتفسد زراعتهم كما حدث سنة ٨٢١ هـ حين أسرع النيل بالهبوط فبادر الناس بالزرع قبل الأوان ففسدت المزروعات وأكلها الدود ، ونتج عن ذلك الغلاء[٢] ويبدو أن الغلات والمزروعات كانت كثيرة لدرجة أن كثيرين من مؤرخى عصر سلاطين المماليك ذكروا أنه ليس هناك نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل ، وكانت الأرض التى تزرع بطريقة رى الحياض تغل محصولا واحداً من المزروعات التى عرفت باسم « المحاصيل الشتوية » ومن أهمها : القمح والفول ، والبصل . أما أراضى الرى الدائم فكانت تنتج المحاصيل الصيفية وأهمها قصب السكر ، والقطن والبطيخ ، كذلك كانت الفواكه والخضروات والأزهار والرياحين تزرع فى البساتين والحدائق التى انتشرت على ضفاف النيل فى عصر سلاطين المماليك ، كما كان الأرز يزرع فى بعض الأماكن التى تتوفر فيها مياه الرى بكثرة مثل اقليم الفيوم ، وكانت الذرة تزرع فى مصر العليا . وفى أراضى الرى الدائم كان يمكن زراعة ثلاثة محاصيل وفقاً لتتابع زمنى معين[٣] .

وكانت كمية الضرائب تقدر تبعاً لحالة النهر ، وهى ما اصطلح على تسميته « بالخراج » الذى كان يدفع من ناتج الأرض الزراعية ، ولكن طريقة جباية الخراج لم تكن واحدة دائمة ، فبينما كان خراج الوجه القبلى يدفع عيناً من غلات الأرض فى غالب الأحيان[٤] ، كان خراج الوجه البحرى نقديا فى معظم الأحوال ، ولما كان الخراج يجبى منذ الفتح الإسلامى لمصر . وفقاً للسنة القمرية العربية ، بينما كانت

---

(١) Dopp : L'Egypte au Com : p. 28, Ency. of Islam : Art Egypt.

(٢) العينى : عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ٤٦٣ — ٤٦٤ (مخطوط) .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٥٤ — ٣٥٥ : المقريزى : الخطط ، حـ ١ ، ص ٢٠٣ .
Ency. of Islam : Art Al Nil.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٩ — ٤٥٠ .

الأرض تغل محصولاتها وفقاً للسنة الشمسية القبطية ، وثمة اختلاف بين والتقويمين فقد تحتم إسقاط سنة قمرية (عربية) كاملة كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية ، إذ أن كل إثنتين وثلاثين سنة شمسية متتابعة تساوى ثلاث وثلاثين سنة قمرية تقريباً ، ولكن هذه المعادلة لم تكن تسبب خسارة أو مكسباً لطرف ما إذ كانت هذه العملية تتم على الورق فقط ، وعرفت هذه العملية باسم « تحويل السنة »[١].

الجسور والترع والقناطر :

من المسلم به أن نظام الرى الذى عرفته مصر فى عصر سلاطين المماليك لم يكن من ابتكار أبناء ذلك العصر ، وانما هو متوارث عن أجيال المصريين التى سكنت الوادى من ناحية وهى نتاج دراما التاريخ المصرى التى يمكن اختزالها فى صيغة صراع ملحمى بين المصرى والنهر من ناحية أخرى ، وكانت زراعة الرى الحوضى انبثاقاً طبيعياً جعلت من الفلاح المصرى مهندساً جغرافياً أعاد تشكيل طبيعة بلاده وجعل من شبكة السدود والترع طبيعة ثانية للوادى[٢] وقد بدأت شبكة السدود والقناطر والترع فى شكلها الجنينى منذ بدأ الإنسان المصرى محاولات ترويض النهر وتطويعه وتطورت تلك الشبكة من وسائل ضبط النهر لتتخذ ذلك الشكل الذى عرفته البلاد فى عصر سلاطين المماليك . وثمة حقيقة أدركها كل من عاش على أرض مصر أو جاور ساكنيها أو خالطهم ، مؤداها أنه حين تتسم محاولات ضبط النهر بالكفاءة ينعكس ذلك على الوادى بالاتساع وغزو الصحراء والبور والبرارى ، أما حين يفشل ضبط النهر يكون تراجع الخضرة أمام رمال الصحراء ومياه البحر المالح ، وذلك دليل على أن النهر الخالد كان ضابط إيقاع جوهرى للعمران فى مصر الفيضية . وحين فتح « عمرو بن العاص » مصر أدرك هذه الحقيقة ولخصها فى رسالته لأمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » التى جاء فيها « . . لا يستأدى خراج ثمارها إلا فى أوانها وأن يصرف ثلث خراجها فى جسورها وتراعها فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال[٣] ».

وقد أدرك سلاطين المماليك هذه الحقيقة أيضاً ، واهتموا بضبط ميـــاه النهر

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٤٥ . Ency. of Islam : Art Egypt.

(٢) جمال حمدان : شخصية مصر ص ١٦٤ (طبعة دار الهلال ١٩٦٧) .

(٣) الحجازى : نيل الرائد ص ١٠ (مخطوط) .

— باعتبارها ثروة قومية — اهتماماً تفاوت بين سلطان وآخر (ولكننا يجب أن ندرك أن اهتمامهم بأمر مياه النيل كان لزيادة غلة إقطاعاتهم التى استأثروا بغالب نتاجها ، كما احتكروا الأقوات والأغلال بينما عاش غالبية أبناء الشعب ، الفلاحون فى القرى والعامة فى المدن ، حياة دون المستوى الآدمى) . وفى زراعة الرى لا غنى عن تدخل الحكومة وسيطاً بين الفلاح والنهر إذ لا بد من ضبط الناس وبذلك لا تصبح الطبيعة وحدها متمثلة فى النهر سيدة الفلاح المصرى ، وإنما يضيف الرى سيداً آخر هو الحاكم[١] .

وعلى كل حال فإن مؤرخى عصر سلاطين المماليك كانوا يعددون المنشآت الخاصة بضبط النهر والتحكم فى مياهه باعتبارها من مآثر السلطان الذى أنشأها إلا أن ذلك لا ينسحب على كل السلاطين فقد تعرضت هذه المرافق للإهمال فى الفترات التى يكون السلطان فيها ضعيفاً ، وفى أوقات الفتن والمنازعات الداخلية .

وأول هذه المنشآت للتحكم فى مياه النهر الجسر« وجمعه جسور » وهو عبارة عن سد ترابى مبنى على حافة النهر أو الترعة يحفظ الماء من أن يفيض على ضفتيه ويغرق البلاد المحيطة ، وتستمر هذه الجسور فى حجز مياه الفيضان كى يُستفاد منها فى عمليات الرى ، وحتى ينصرف النيل ويزول الخوف من خطر الفيضان العالى[٢] وانقسمت جسور النيل فى عصر سلاطين المماليك إلى قسمين هما :

١ — الجسور السلطانية .

٣ — الجسور البلدية[٣] .

أما الجسور السلطانية : فهى تلك الجسور التى يعم نفعها كل الأرض الزراعية المصرية فى أنحاء البلاد ، ولذا كانت تشيد وتتم صيانتها من الديوان السلطانى ، ولها رسوم مقررة على البلاد المصرية فى شكل جراريف ومحاريث وأبقار مرتبة على غالب

---

(١) جمال حمدان : شخصية مصر ص ٤٩ — ٥١ .

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٣٢ ، المقريزى : السلوك ج ١/ق ص ٦٣٩ (حاشية للأستاذ الدكتور زيادة) الخطط ج ١ ص ٦٠ .

(٣) ابن مماتى : المرجع السابق ص ٢٣٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .

البلاد المصرية[١] وكانت الدولة — ممثلة فى السلطان على رأس جهازها — مسئولة عن إقامة وصيانة هذا النوع من الجسور لما كان لها من صفة جامعة ، وأهميتها فى رى البلاد ، وكان مستخدمو الديوان — كما يذكر ابن مماتى فى قوانين الدواوين — يقومون بتحصيل ضرائب سنوية يخصص دخلها الأعمال صيانة هذه الجسور فينفق من حصيلة هذه الضرائب ما يقتضى صرفه فى هذا الصدد ويحصل الباقى إلى بيت المال[٢] . وقد وصفت الجسور السلطانية بأنها بمثابة السور المحيط بالمدينة (هكذا كان شكل مدن العصور الوسطى فى الغالب) وعلى السلطان أن يهتم بهذا السور ويكفى الرعية أمر التفكير فيه . وكان لهذه الجسور السلطانية كاتب خاص مقرر فى ديوانه ما على كل بلد من الأبقار والجراريف[٣] .

والقسم الثانى من هذه الجسور هى **الجسور البلدية** : وكان أهل القرى والنواحى يلتزمون ببنائها وصيانتها ذلك أن نفع الجسر منها كان يقتصر على ناحية دون أخرى ، ومن ثم فقد كانت مسئولية إنشائها تقع على عاتق المقطعين من الأمراء والأجناد وغيرهم من الفلاحين من الأموال الجارية فى قطاعاتهم[٤] وقد وصفت هذه الجسور البلدية بأنها تماثل الدور الواقعة داخل نطاق سور المدينة (الجسور السلطانية) وبطبيعة الحال فإن كل صاحب دار من هذه الدور مسئول عن صيانتها داره وحمايتها .

ويمكن أن نضيف إلى هذا التقسيم تقسيماً آخر ، وهو أنه كانت هناك جسور دائمة ، وأخرى تنشأ لمواجهة الطوارئ وحالات طغيان مياه النهر وغرق البلاد ، أو جفاف مياه النهر تجاه ساحل القاهرة ومن ثم يلزم إنشاء جسر يحول المياه من ساحل الجيزة إلى ساحل القاهرة ، وكانت هذه الجسور تظل قائمة حتى مجىء الفيضان فتجرفها المياه وتتجدد عند الحاجة اليها[٥] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٨ — ٤٥٢ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٣٢ الجراريف هى التى يجرف بها التراب ويكوم لإقامة الجسور (ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٩) .

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٣ — ٢٣٣ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٨ — ٤٥٢ .

(٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٣٢ ، ابن شاهين الظاهرى زبدة كشف الممالك ص ١٢٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٨ — ٤٥٢ .

Quatremere : Histoire de Sultans Mamluke : vol 2, pp : 152 - 153.

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ١٣٠ ، المقريزى : السلوك جـ ٢/ق ٢ ص ٧٠٤ .

وعلى كل حال فإن أمر صيانة هذه الجسور – سلطانية كانت أم بلدية – كانت مسألة حيوية لضبط النهر وحفظ البلاد إبان الفيضان « . . . لئلا تقطعها المياه فتصير البلاد بائرة . . . »[١]، وكانت صيانة هذه الجسور تتم عن طريق دعمها المستمر بالتراب والشقاف ، وتثبيتها باللبش (جمع لبشة وهى حزم القش وسيقان النبات اللين) والمداومة على ذلك حتى يزول الخوف من خطر الفيضان[٢].

وجرت العادة فى عصر سلاطين المماليك أن يعين السلطان لكل عمل من أعمال البلاد أميراً فى كل عام لكشف جسورها أى لصيانتها وتجديد ماقد يكون تهدم منها وكان هذا الأمير يسمى « كاشف الجسور »[٣] أحياناً « وكاشف التراب »[٤] أحياناً أخرى ربما لأن التراب كان هو المادة الرئيسية المستخدمة فى بناء الجسور آنذاك ، وكان هؤلاء الكشافون يعينون من بين مقدمى الألوف ، ويكون خروجهم لكشف جسور البلاد فى فصل الربيع وربما يتولى أحد الأمراء كشف جسور بلد ما بجانب ولايتها فيقال « والى فلانه وكاشف جسورها . . »[٥]. وتطورت وظيفة كاشف الجسور على مر السنين فبعد أن كان عدد كشاف الجسور ثلاثة فقط زاد عددهم ربما إلى الضعف وأكثر. وفى بداية الأمر كان كشاف الجسور الثلاثة موزعين على هذا النحو : **كاشف الوجه القبلى** : وله الولاء من الجيزة حتى الجنادل ويولى من تحت أمره سبعة ولاه بالوجه القبلى . **وكاشف الوجه البحرى** : ويولى من تحت أمره سبعة ولاه على أقاليم الوجه البحرى من مقدمى الألوف **وكاشف الجيزة** : وهو تارة من المقدمين وتارة أخرى من الطبلخانات[٦] ثم تطور الأمر ليصبح كشاف الوجه القبلى وحده ثلاثة كشاف فى بعض الاحيان أحدهم بالصعيد الأعلى ، والثانى بالصعيد الأدنى ، والثالث بإقليم الفيوم ، وأحياناً

---

(١) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك : ١٢٩ .

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٤٨ – ٤٥٢ .

(٤) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٢٩ ، ابن زنبل آخرة المماليك ص ٧ من المقدمة ، العينى عقد الجمان جـ٢ ص ٦٦٠ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٤٨ – ٤٥٢ .

(٦) الطبلخانات هنا جمع أمير طبلخاناه وهو الذى يدق على بابه ثلاثة أحمال طبول ونفيران فى بداية عصر المماليك ثم أصبحت طبلان وزمران (سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر السلاطين المماليك ص ١٨ (ط . أولى) .

يكون للوجه البحرى كاشفان : أحدهما بالشرقية ، والآخر بالغربية[١] ويبدو أن تعدد كشاف الجسور على هذا النحو قد أدى ذلك إلى عدم انضباط أعمال صيانة الجسور وعمارتها نتيجة لفقدانهم سطوتهم ومهابتهم « . . . فإنهم كانوا فى غاية الأبهة . . . »[٢] كما أدى ذلك إلى ضياع حقوق الرعية نتيجة لعدم نفاذ كلمة الكشاف وازدواج تبعية الولاة بين الكاشف والاستادار[٣] ونخرج من تتبعنا لوظيفة « كاشف الجسور » بنتيجة هامة هى أن مرتبة الأمراء الذين تولوا هذه الوظائف ومن كان يتبعهم من موظفى الدول الآخرين كالولاة تشير جميعها إلى مدى العناية التى وليت لأعمال ضبط النهر ولا غرابة فى ذلك فالنيل هو مصر ، فهو يعوض ذلك النقص الصارخ فى كمية المطر بالبلاد ولولاه لأصبحت مصر من أجدب مناطق العالم[٤] .

وثمة وظائف مؤقتة كانت تنشأ أحياناً أثناء العمل فى بناء أحد الجسور أو شق أحد الخلجان وتزول بانتهاء العمل . فقد ذكر المؤرخ تقى الدين المقريزى فى حوادث سنة ٧٤٩هـ حين بدأ العمل فى بناء جسر لمعالجة جفاف المياه تجاه ساحل القاهرة (كان الأمير منجك اليوسفى مسئولا عن إنجاز هذا العمل) أنه عمل لكل جهة شاد وكاتب وعدة أعوان من الرسل وصيرفى كانت مهمتهم جمع الأموال التى قررت على الناس والحوانيت والبساتين والسواقى وغيرها لتغطية تكاليف بناء الجسر[٥] ونسمع فى أواخر عصر سلاطين المماليك (القرن العاشر الهجرى وأوائل القرن السادس عشر الميلادى عن تعيين بعض أولاد الناس (أى أبناء المماليك ولكن لم يمسهم الرق) لحفظ الجسور[٦]

هذا عن الجسور القائمة فعلا والتى كان يجب ترميمها سنويّاً ، ولكن ثمة من

(١) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك : ص ١٢٩ — ١٣٠ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٣) الاستادار : وظيفة من أرباب السيوف يكون صاحبها مسئولا عن شئون بيوت السلطان وله مطلق التصرف فى الإنفاق على كل من فى بيت السلطان (سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٨٩) ويبدو أن اختصاصاته قد تطورت بعد ذلك لتشمل أشياء أخرى كما يتضح من كلام ابن شاهين الظاهرى (زبدة كشف الممالك ص ١٢٩ — ١٣٠) وكان الولاة يتبعونه أحياناً .

(٤) Ency. of Islam : Art Al Nil.

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٢/ق ٢ ص ٧٦١ — ٧٦٦ .

(٦) ابن أياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٣٨٢ (نشر محمد مصطفى) .

الجسور ما كان ينشأ لضرورة طارئة لمواجهة خطر داهم ، أو ليكون طريقاً يربط بين أنحاء البلاد استجابة لضرورة عسكرية ، أو لتحويل مياه النهر نحو ساحل القاهرة ليمكن للناس استخدامه للشرب ، وفى مثل هذه الأحوال يعين السلطان واحداً من كبار الأمراء ليكون « شاد العمل » أى المشرف على إنجازه ، وفى أحيان كثيرة كان السلطان ينزل بنفسه ليشرف على سير العمل وربما شارك فيه والأمثلة على ذلك كثيرة ، ففى سنة ٧٣٨هـ نزل السلطان الناصر محمد بن قلاون بنفسه ليشرف على سير العمل فى أحد الجسور عدة مرات ، وكان فى كل مرة « . . . يهين اقبغا — المسئول عن العمل — ويسبه ويستحثه حتى تم العمل »(١) . كذلك سار السلطان الناصر محمد ابن قلاون بنفسه سنة ٧٣٧هـ لبناء جسر شبين اتقاء لخطر شراقى بعض البلاد نتيجة لتهدم جسر شبين(٢) .

وكانت بعض الجسور تنشأ لأغراض عسكرية صرفة مثل ذلك الجسر الذى أنشأه السلطان الظاهر بيبرس ليربط بين الجيزة والروضة من ناحية ، وبين الروضة والقاهرة من ناحية أخرى ، وكان هذا الجسر من النوع المؤقت مبنى من الخشب لتعبر عليه الجنود(٣) ومثال آخر هو ذلك الجسر الذى امتد من قليوب حتى دمياط ، وكان سبب بنائه وورود الأخبار بأن صاحب قبرس قد اتفق مع ملوك الفرنج على غزو دمياط ، وتم بناء هذا الجسر سنة ٧٠٨هـ حتى إذا تحرك الفرنج وقت الفيضان وجد الجنود طريقاً للوصول إلى دمياط وإلا تعذر الدفاع عنها بغير هذا الجسر(٤) .

أما طريقة بناء هذه الجسور فالطريقة الشائعة آنذاك — كما يتضح من إشارات المؤرخين — هى تغريق المراكب المشحونة بالحجارة فى المكان المراد بناء جسم الجسر فوقه ، ثم يتوالى بعد ذلك ردم المكان بالتراب والأخشاب والشقف وما إلى ذلك ، كما كانت الحلفا والجبس والجير تستخدم فى بناء جسم السد أو الجسر ، وحين يتم ذلك يصير جسم

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٦٦ .
(٢) المرجع السابق : جـ ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .
(٣) أبن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ حوادث سنة ٦٥٨هـ ، السيوطى : كوكب الروضة ص ٣٨ (مخطوط) ، ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ١١٠ .
(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٦٩ ، السلوك جـ ٢/ق ١ ص ٤٩ .

السد بارزاً ويصبح بمثابة طريق يستخدم للسفر والربط بين أجزاء البلاد أثناء الفيضان[١]

ولكن أمر العناية بالجسور لم يستمر بنفس الحماسة طوال العصر المماليكى ففى المراجع المعاصرة كثير من شكاوى المؤرخين من إهمال الجسور لا سيما فى الفترة الأخيرة من عصر سلاطين المماليك إذ أضحت الحكومة فاسدة ولا نفوذ لها ، ففى سنة ٧١٧هـ غرقت عدة مواضع نتيجة عدم الاعتناء بالجسور على حد تعبير المقريزى[٢] كذلك حدث سنة ٧٥٠هـ أن باع الولاة الجراريف المستخدمة فى صيانة الجسور وأهملوا الجسور فخربت النواحى وامتد أذاهم ليلحق بالفلاحين[٣] . كما أن القلقشندى (ت٨٢١هـ) يذكر أن الاهتمام بأمر الجسور قد قل فى عصره وأهملت عمارة أكثر الجسور البلدية واقتصر فى عمارة الجسور السلطانية على الشيء اليسير « . . . الذى لا يحصل به كبير نفع ، ولولا ما من الله به على العباد من كثير الزيادة فى النيل من حيث أنه صار يجاوز تسعة عشر ذراعاً فما فوقها حتى يجاوز العشرين لفات رى أكثر البلاد وتعطلت زراعاتها . . . »[٤] . ويفسر هذا ما ورد ببعض المصادر من أن بعض المسئولين عن كشف الجسور كان يستعفى أو يستقيل على حد تعبيرنا المعاصر كما حدث سنة ٨٣٨هـ حين استعفى الوزير من ضبط الجسور « لقلة المصروف »[٥] . ويعلل أحمد بن محمد المنوفى (ت٩٣١هـ) سوء الحال الذى وصل إليه أمر الجسور أواخر عصر سلاطين المماليك بقوله « . . . تهدم فى زماننا الجسور ، وتحكم الفساد ، وخربت البلاد ووسد الأمر إلى غير أهله ، ووضع الشيء فى غير محله ، ولا جرم أن حل بالناس ما حل ، وانفرط نظام المملكة وانحل . . . »[٦] . ونخلص من هذه الأمثلة وكثير غيرها فى مؤلفات ذلك العصر بنتيجة هامة مؤداها أنه طالما كانت الحكومة قوية انعكس ذلك على مدى النجاح فى مرافق ضبط النهر والعكس صحيح تماماً .

---

(١) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٧٤٩هـ (مخطوط) المقريزى : السلوك ج ١/ق ، ص٤٣٧ ، ج٢/ق ص ٤٧٣ ، الخطط ج ٢ ص ١٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ١٣٠ ، ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ٢٠١ (مخطوط) وانظر كذلك . Quatremére, (Vol 1) , p. 19.

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢/ق ١ ص ١٧١ — ١٧٣ .

(٣) المرجع السابق ج ٢/ق٣ ص ٨١١ .

(٤) القلقشندى صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ — ٤٥٢ .

(٥) ابن حجر : إنباء الغمر ج ٢ ص ٢٧٧ (مخطوط) .

(٦) المنوفى : الفيض المديد : ص ٤٨ — ٤٩ (مخطوط) .

ننتقل بعد ذلك إلى الترع والقنوات أو الخلجان[1] — كما دأبت مؤلفات عصر المماليك على تسميتها—وقد عدد المقريزى أهم خلجان مصر فى زمنه على النحو التالى[2]:

(١) خليج منف (٢) خليج منجا (٣) خليج المنهى (ينسب حفره إلى يوسف عليه السلام وهو بحر يوسف الحالى الذى يجرى إلى إقليم الفيوم). (٤) خليج اشموم طناح (٥) خليج سردوس (٦) خليج الإسكندرية (٧) خليج دمياط. (٨) بحر أبى المنجا، والخلجان التى بظاهر القاهرة هى (١) خليج القاهرة (٢) خليج فم الخور (٣) خليج فم الذكر (٤) خليج قنطرة الفخر.

ولم تكن هذه الخلجان أو الترع التى ذكرناها آنفاً تمثل — بطبيعة الحال — كل شبكة الرى المصرية فى ذلك العصر، فقد كانت هناك شبكة هائلة من الترع والسدود والقناطر والمصارف تغطى البلاد وفقاً لنظام محكم، وإن تركز غالبها فى الوجه البحرى بحكم طبيعة أرضه المنبسطة والمترامية الأطراف، ومهما يكن من أمر فإن ما يعنينا فى هذا المقام هو أهم ما حفر وجدد حفره من الخلجان فى عصر سلاطين المماليك.

خليج الإسكندرية: أنشىء هذا الخليج عام ٣٣١ ق. م مواكباً لإنشاء مدينة الإسكندرية ليمدها بالمياه من فرع النيل الكانوبى وقد تغير موضعه خمس مرات[3]. وتجدد حفر هذا الخليج مرات ثلاث على الأقل فى عصر سلاطين المماليك كانت أولاها سنة ٦٦٤هـ فى عهد السلطان الظاهر بيبرس حين انسدت فوهه بالرمال، وقل الماء بالإسكندرية وباشر الحفر فيه بنفسه حتى أجرى الماء[4]. وكانت المرة الثانية فى سلطنة الناصر محمد بن قلاون الثانية سنة ٧١٠هـ وفى هذه المرة تم تنظيف مجرى الخليج حتى جرى الماء فيه ودخلته السفن بالغلال والمتاجر، واستجدت عليه عدة سواقى وبساتين وعمرت قرية «الناصرية» نسبة إلى الناصر محمد نفسه وسكن ضفتيه حوالى مائة لف

---

(١) الخلجان ومفردها خليج: وهو النهر الصغير يختلج من نهر كبير أو بحر وأصل الخليج الانتزاع، خلجت الشيء منه أى انتزعه (المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ١٣٨).

(٢) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٦٩ وقد جاء عدد خلجان مصر فى عدة مراجع أخرى غير الخطط المقريزية. لكن أكثرها تفصيلا وبالتالى دقة الخطط المقريزية، ومن ثم فقد اعتمدنا عليه فى هذا الصدد.

(٣) عمر طوسون: تاريخ خليج الإسكندرية ص ٤ — ١٦.

(٤) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ١٧٠. السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥١٠، العينى: عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٤هـ (مخطوط).

نسمة[١] وحفر للمرة الثالثة فى عهد السلطان الاشرف برسباى سنة ٨٢٦هـ[٢] .

خليج مصر أو القاهرة : يبدو أنه هو نفسه القناة التى حفرت فى عهد الفراعنة لتصل النيل بالبحر الأحمر ، وعرفت باسم « قناة سيزوستريس » ، وتجدد حفرها عدة مرات آخرها على يد عمرو بن العاص فى عام الرمادة بناء على طلب الخليفة عمر بن الخطاب ليرسل عن طريقها مدداً من الأقوات إلى المدينة المنورة ، وقد ظلت هذه القناة (الخليج) مستخدمة لتصل بين النهر والبحر الاحمر حتى أمر الخليفة جعفر المنصور بسدها من ناحية البحر الأحمر حتى لا تحمل الإمدادات إلى المدينة المنورة ومنذ ذلك الحين انقطع جرى ذلك الخليج إلى البحر الأحمر ، وصار ماؤه يجرى فى السباخ[٣] (الأرض التى لا تصلح للزراعة) . وقد عرف هذا الخليج بعدة أسماء منها « خليج مصر أو الخليج الكبير » « وخليج القاهرة » الذى أطلق عليه حين بنى جوهر الصقلى مدينة القاهرة ، ولما مر « الخليفة عمر بن الخطاب » بتجديد حفره صار يعرف باسم « خليج أمير المؤمنين » وفى زمن المقريزى (القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى) عرفه الناس باسم « الخليج الحاكمى » و « خليج اللؤلؤة » . هذا الخليج هو الذى كان يكسر سده يوم الوفاء[٤] .

خليج المنهى : وهو فرع من فروع النيل يخرج الآن من ترعة الإبراهمية ليصب فى منخفض الفيوم وفيما مضى كان يخرج من النيل مباشرة قرب ديروط[٥]. وينسب حفر هذا الخليج إلى سيدنا يوسف عليه السلام[٦]. ولعل هذا هو سر تسميته ببحر يوسف حتى أيامنا هذه . وفى عصر سلاطين المماليك كان يخرج من نهر النيل قرب ديروط إلى إقليم الفيوم عبر إقليم الأشمونين والبهنسا يمتد طوله حوالى ٢٧٢ ميلا منذ

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٧٨ – ١٧٩ ، المقريزى الخطط جـ ١ ص ١٧٠ ، السلوك جـ ٢/ق ٢ ص ٥٣٨ – ٥٤٢ ، Muir (W.) : The Mameluke : pp. 89 - 90.

(٢) ابن أباس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٧ (ط . بولاق) .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٠١ – ٣٠٥ .

(٥) محمد عوض محمد : نهر النيل : ص ١٣٩ (الطبعة الخامسة) .

(٦) النابلسى : إقليم الفيوم ص ٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٠١ – ٣٠٥ . النويرى : نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٦٤ .

خروجه من النهر حتى دخوله إقليم الفيوم[١] وفى نهاية قنطرة أو سد عرف باسم « اللاهون » وهو بناء من الحجر والرصاص والحديد لمنع المنياه من التسرب فى المنخفض الصحراوى القريب وكان هذا الخليج يجف ماؤه أربعة أشهر ويجرى ثمانية ، وكان توفير المياه لمنخفض الفيوم مشكلة تقض مضاجع حكام مصر ويتحدث أبو عثمان النابلسى عن بعض المحاولات لزيادة مياه هذا الخليج — قبل عصر المماليك — فقد حاول أحد الحكام زيادة مياه النهر بأن قطع الأشجار الحافة بشاطئيه من صفط وصفصاف ، وحاول نفس الحاكم مرة أخرى زيادة المياه بتعلية مبنى اللاهون (القنطرة) وفشلت هذه المحاولة أيضاً[٢] وكان إغلاق الخليج عند قنطرة اللاهون يتم عن طريق بوابة كانت تسمى القطعة وهى عبارة عن جذع نخلة عليها زيادات من القش والألياف والحبال حتى يصير سمكها عظيماً ، وتربط من طرفيها بحبال يتم تحريكها بواسطة حبال يمسك بها الواقفون على ضفتى « الخليج » بمساعدة المياه حتى تسد الفتحة ، وتخرج من هذا الخليج عدة ترع لرى البلاد التى بإقليم الفيوم وكانت مداخلها تسد عند هبوط نهر النيل[٣] .

الخليج الناصرى : بدأ السلطان الناصر محمد بن قلاون فى حفره سنة ٧٢٥هـ ليمر من خارج القاهرة إلى سرياقوس حيث بنى السلطان قصوره ونقل الميدان من تحت القلعة إلى هناك ، وذلك حتى يمكن للمراكب أن تحمل فيه الغلال إلى قصور السلطان بسرياقوس ، واستمر العمل فيه شهرين ، لما تم حفره سكن الناس شاطئيه وعمرت ضفتاه بالمزارع والحقول والبساتين والمساكن ، وتنافس الناس فى السكنى هناك ، وأنشأوا المساجد والحمامات والأسواق « ... وصار هذا الخليج مواطن أفراح ، ومنازل لهو ، ومغنى صبابات ، وملعب أتراب . . . »[٤] .

القناطر : عدّد المقريزى أهم قناطر مصر فى زمنه على النحو التالى : قناطر الخليج الكبير أربع عشرة قنطرة ، وقنطرة على كل من خليج فم الخور ، وخليج الذكر ، وعلى الخليج الناصرى خمس قناطر ، وبالجيزة وبلادها عدة قناطر ، وعلى بحر أبى المنجا

---

(١) Ency. of Islam : Art Al Nil.

(٢) النابلسى : تاريخ الفيوم ص ١٠ — ١٢ .

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٢/ق ١ ص ٢٦١ — ٢٦٢ ، الخطط جـ ٢ ص ١٤٤ — ١٥٠ .

قنطرة وصفها المقريزى بأنها أعظم قناطر مصر وأكبرها ، وقد أنشاها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥هـ[١] وكانت القناطر تبنى من الحجارة وتدعم أساساتها بالرصاص والكلس، وكانت بعض هذه القناطر من الضخامة بحيث تسمح بمرور المراكب من تحتها[٢] .

وكانت تسبق هذه الإنشاءات بعض الأعمال التمهيدية مثل المناقشات الهندسية التى كانت تدور أثناء معاينة مكان حفر الخليج أو بناء السد أو القنطرة ، وكثيراً ما شارك بعض السلاطين بأنفسهم فى هذه المناقشات ويقدمون الاقتراحات ، وقد اشتهر « السلطان الناصر محمد بن قلاون » فى هذا الصدد بأن « . . . له بصر جيد وحدس صحيح[٣] » مثال ذلك ما حدث سنة ٧٢٥هـ إذ أراد الأمير « سيف الدين آرغون » نائب السلطنة ومعه المهندسون وأرباب الخبرة فى مسح الشطوط بمسح شاطئ النيل بقصد اختيار المكان الذى يبدأ منه حفر الخليج الناصرى[٤] كما ركب « السلطان الملك الكامل شعبان » سنة ٧٤٦هـ « ... ومعه الأمراء وكثير من أرباب الهندسة وخبراء شطوط النيل لكشف المكان المناسب لبناء جسر يدفع الماء ناحية ساحل القاهرة[٥] . . . » وفى حوادث سنة ٧٢٨هـ أورد لنا المؤرخ « أبو المحاسن بن تغرى بردى » مناقشة هندسية من هذا النوع إذ أراد « السلطان » الناصر محمد بن قلاون » أن يجرى النيل تحت القلعة عن طريق ترعة أو قناة يشقها من تجاه حلوان ، ولكنه بعد مناقشات طويلة مع الأمراء والمهندسين وأرباب الخبرة عدل عن هذا المشروع لصعوبة تنفيذه[٦] وكانت هذه المناقشات مجالا يشترك فيه مهندسو الديار المصرية والشامية والعراق أيضاً فى بعض الأحيان[٧] .

تمويل أعمال ضبط النهر (الجسور . الخلجان . القناطر) :

وكان المفروض أن تمول أعمال ضبط النهر — ما بين إقامة الجسور ، وشق الترع ، وبناء القناطر — من الخراج أى من بيت المال « فيجب إنفاق ربع حصيلة الخراج

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ١٤٥ — ١٥٠ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢١٧ .
(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٤٤ ، السلوك جـ ٢/ق٣ ص ٧٦١ ، ٧٦٦ .
(٤) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ١٣٠ (ط دار الكتب) .
(٥) المقريزى : السلوك جـ ٢/ق٣ ص ٧٠٤ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٩٠ — ٩١ .
(٧) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٦٦ ، السلوك جـ ٢/ق ٢ ص ٤٥٠ .

على الجسور إذا عملت كما ينبغى[١] . . . » وكان المفروض أيضًا أن عمارة الجسور السلطانية تتم من أموال الديوان السلطانى فى عصر سلاطين المماليك ، لكن إشارات كثيرة ومتواترة فى مؤلفات ذلك العصر تدل بوضوح على أن مصادر تمويل هذه الأعمال كانت هى الرعية نفسها فى كثير من الأحوال خاصة إذا كان هناك مشروع لإنشاء جسر جديد ، ولكننا — من ناحية أخرى — نسمع فى أحيان قليلة أن أحد أمراء المماليك قد شيد جسراً ، أو حفر خليجاً أو بنى قنطرة من ماله الخاص ، ونستدل على صحة هذا الكلام بما حدث سنة ٧٤٩هـ حين تقرر بناء جسر يدفع الماء تجاه ساحل القاهرة بعد أن كان قد تحول إلى ساحل الجيزة وبولاق ، وارتفعت أسعار روايا الماء ووجد الناس مشقة فى الحصول على مياه الشرب . وكان المسئول عن إنجاز هذا العمل الأمير منجك اليوسفى بتكليف من « السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون » . وتقرر تحصيل الأموال اللازمة للإنفاق على بناء هذا الجسر من الأمراء والأجناد والكتاب وأصحاب الأملاك . . . وسائر الناس . . . » ، وكتبت أوراق بأسماء الأجناد والأمراء فيها مقدار إقطاع كل منهم ، وفرض على كل مبلغ يناسب إقطاعه ، وفرضت « المغارم » على الحوانيت والدور والبساتين وحجارة الطحانين ، وصهاريج الماء بالترب والمدارس بالقاهرة ومصر « . . . ولم يبق رجل ولا امرأة حتى جبوا منه . . » بل إن بعض الوظائف المؤقتة أنشئت آنذاك لتحصيل الأموال المقررة لبناء الجسر ، فقد عين لكل جهة من الجهات شاد وكاتب وعدة أعوان من الرسل وصيرفى ، وقد صحبت تحصيل هذه « المغارم » مظالم عديدة لدرجة أن الشخص الذى كان يفرض عليه درهمان كان يغرم عشرة دراهم ذلك لأنه يدفع ما عليه عدة مرات ، ثم يدفع بعد ذلك للشهود[٢] ليشهدوا أنه أدى ما عليه ورغم أن ما تحصل من ذلك بلغ نحواً من ثلاثمائة ألف دينار — وهو مبلغ ضخم بمعايير ذلك العصر — إلا أن المشروع فشل تماماً فقبض على منجك وصودرت أمواله[٣] . وفى سنة ٨٢٢هـ عمرت قناطر شبين وبلغ جملة ما أنفق عليها

(١) المقريزى : السلوك جـ ١/ق ٢ ص ٦٣٩ (حاشية للأستاذ الدكتور محمد مصطفى زياده) .

(٢) فى عصر سلاطين المماليك احتفظ كل قاض بعدد من النواب يجلسون بحوانيت الشهود أو الشوارع للتكسب من تحملهم الشهادات وكان هؤلاء الشهود يتعرفون أحوال الناس ويشهدون فى القضايا ولهم حوانيت معلومة فإذا احتاج المتقاضون إلى شاهد أحضروه للشهادة مقابل أجر معين (سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٥٨) .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢/ق٣ ص ٧٦١/٧٦٦ ، الخطط جـ ٢ ص ١٦٧ ، ابن أياس بدائع الزهور ، جـ ١ ص ١٩٠ (ط. بولاق) ، العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٧٤٩هـ (مخطوط) .

خمسة آلاف دينار جمعت من بلاد الجيزة « ... وحتى من الرزق والإقطاعات .. »(١) والأمثلة على ذلك كثيرة ومتواترة فى المراجع ولا سيا فى الدور الأخير من ذلك العصر(٢) .

وفى بعض الأحيان كان السلطان يخصص وقفاً معيناً للإنفاق منه على عمارة أحد الجسور كما فعل السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥هـ(٣) . وكان بعض الأمراء ينشئ الجسر أو القنطرة من ماله الخاص « ... دون أن يلزم أحد بغرامة درهم فما فوقه . .» كما فعل الأمير « بكتوت الخازندار » سنة ٧١٠هـ(٤) والأمير جركس الخليلى سنة ٧٨٤هـ(٥)

ويبدو أن مبدأ تعويض أصحاب الأملاك التى يتم الاستيلاء عليها بسبب بناء جسر ما أو حفر خليج كان موجوداً على الأقل فى بعض الأحيان ؛ فقد ذكر المقريزى فى حوادث سنة ٧٢٥هـ «أنه لما بدأ العمل فى حفر الخليج الناصرى سنة ٧٢٥هـ بدأ هدم الأملاك الموجودة فى المنطقة « . . ورسم بأن يعطى أرباب الأملاك أثمانها فمنهم من باع ملكه وأخذ ثمنه من مال السلطان ، ومنهم من هدم داره ونقل أنقاضها(٦)» .

أما العمال والفعلة الذين على عاتقهم كانت تقع مهمة إنجاز هذه المشروعات ، فغالباً ما كانوا يجمعون من القرى والشوارع والأسواق لتسخيرهم فى هذه الأعمال ، وكانوا عرضة لكل ضروب الظلم والامتهان وما إلى ذلك من أشكال التسخير والإجاعة والإرهاق ، فضلا عن إنقاص أجور من يتقاضون أجراً من العمال وإجبارهم على العمل فوق طاقتهم مما جعل بعض كتاب ذلك العصر يدعو شاد العمائر (المشرف على أعمال البناء ، والذى قد يشرف على بناء القنطرة أو الجسر) إلى اللطف والرفق بالفعلة والعمال « . . . لأن استعمالهم فوق طاقتهم من أقبح الحرمات ، وأشنع الجراءات على الله تعالى فى خلقه . . . »(٧) ولكن الطريقة الشائعة فى تشغيل هؤلاء العمال كانت « السخرة » ودليل ذلك ما حدث سنة ٧٢٥هـ أثناء العمل فى الخليج الناصرى(٨) وقد

---

(١) ابن حجر : أنباء الغمر جـ ٢ ورقة ١٤١ (مخطوط) .
(٢) ابن أياس : بدائع الزهور جـ٤ ص٢٢٨–٢٢٩ ، ص٢٩١ ، ص٢٩٤ (نشر محمد مصطفى) .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٤٨ – ١٤٩ .
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٢/ق ١ ص ١١١ – ١١٢ .
(٥) المرجع السابق جـ ٣/ق ٢ ص ٤٦٩ .
(٦) المرجع السابق جـ ٢/ق ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ، الخطط جـ ٢ ص ١٤٤ .
(٧) السبكى : معيد النعم ص ٧٢ .
(٨) المقريزى : السلوك جـ ٢/ق ١ ص ١٦٥ ، ٢٦١ – ٢٦٢ .

يتجاوز الأمر الحد فى تسخير الناس فى هذه الأعمال لدرجة أخذهم من المساجد والجوامع وقت السحر وأخذهم من الأسواق وتقييدهم بالحبال وإرسالهم إلى مواقع العمل، مما جعل الناس يلزمون بيوتهم – فى هذه الأحوال – خوفاً من السخرة[1]، وقد حدث سنة ٧١٦هـ أن انقطع أحد الجسور فى الجيزة « ... وجمع لسده خلق كثيرون غرق منهم نحواً من ثلاثين إنساناً انطبق عليهم الجسر. . . » وبعدها بوقت قصير قبض على حوالى سبعين رجلا غيرهم من شوارع مصر والقاهرة « . . وكُتِفوا وأنزلوا فى المراكب لسد الجسر فانقلبت بهم وغرقوا جميعاً . . . »[2].

ويبدو أن عمال السخرة هؤلاء كانوا يعملون لقاء قوتهم اليومى، فإننا كثيراً ما نقرأ فى مؤلفات ذلك العصر أن « المطعومات » قد عملت أثناء العمل فى أحد الجسور أو الخلجان لإطعام العاملين، بل أن المقريزى يقرر أن جملة ما أنفق لإصلاح قناطر شبين سنة ٧٤٠هـ بلغ ثلاثين ألف دينار « . . . غير أجر سخرة البلاد[3] . . »، ولا نعلم على وجه اليقين هل المقصود هنا قيمة ما أنفق على إطعامهم، أم غير ذلك.

وعلى كل حال فإنه فى بعض الأحيان – وحين تشتد الحاجة إلى الأيدى العاملة – كان العمال والفعلة المستخدمون فى هذه المشروعات يتقاضون أجوراً[4] ففى سنة ٧٤٩هـ أثناء بناء الجسر تحت إشراف « منجك اليوسفى » نودى فى الفعلة والعمال والحرافيش « .. من أراد العمل فله درهم ونصف وثلاثة أرغفة . . . » ويفهم أيضًا مما ذكره المقريزى عن تكاليف إصلاح قناطر شبين سنة ٧٤٠هـ أن العمال والفعلة الذين عملوا فى إصلاحها كان منهم السخرة ومنهم من تقاضى أجراً عن عمله[5]، وثمة دليل آخر يذكره المقريزى أيضًا فقد انقطع أحد الجسور وصار ما بين بولاق والقاهرة « بحراً واحداً »، وأصبحت القاهرة ذاتها مهددة بالغرق « . . . وطلب الفقراء للعمل فبلغت أجرة الرجل فى كل

---

(١) المرجع السابق جـ ٢/ق ٢ ص ٥٥٠، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١٢٤ – ١٢٨ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢/ق ١ ص ٢٦٢ .

(٣) المرجع السابق جـ ٢/ق ٢ ص ٤٧٣ .

(٤) المرجع السابق جـ ٢/ق ٣ حوادث سنة ٧٤٩هـ والخطط جـ ٢ ص ١٦٧ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٢/ق ٢ ص ٤٧٣ .

يوم ما بين درهم إلى ثلاثة دراهم لعزة الرجال واشتغالهم عند الناس فى نقل التراب[١] » .

وكان اشتراك الناس فى هذه الأعمال إجبارياً ، فيخرج المماليك بأجنادهم وغلمانهم ويخرج المقطعون بفلاحى البلاد الجارية فى إقطاعاتهم وينادى فى المدن بخروج العامة للعمل ، وعادة ما كان النداء مصحوباً ببعض التهديدات كما حدث زمن « السلطان الملك المؤيد شيخ » مما جعل الأسواق فى القاهرة وظواهرها تخلو من روادها ، وأقفلت القياسر« . . والمنادى ينادى بالتهديد لمن تأخر فى الحفير حتى أنه نودى فى بعض الأيام أن من فتح دكاناً شنق ، فتوقفت أحوال الناس . . . » ولم تكن العامة تملك إزاء هذه المظالم سوى نظم الأشعار والأغنيات الساخرة فصنفوا فى ذلك غناء كثيراً وعدة بلاليق[٢] .

وهكذا فقد تقلبت أحوال العمال والفعلة فى هذه المشروعات آنذاك ما بين تسخيرهم مقابل قوتهم اليومى ، والأجر اليومى الذى قد يكون نصفه عينياً فى بعض الأحيان والنصف الآخر نقدياً . ويتضح من كلام مؤرخى عصر سلاطين المماليك أن هؤلاء الفعلة كانوا يؤخذون من بين جموع الفلاحين أو عامة أهل المدن ، ولكنهم بطبيعة الحال لم يكونوا محل رعاية من أى نوع ، بل أنهم كثيراً ما تعرضوا لمعاملة بالغة القسوة لدرجة أن الرجل منهم « . . . كان يخر إلى الأرض لعجزه عن الحركة فتردم عليه رفقته فيموت من ساعته . . . »[٣] .

وفى مواقع العمل كانت الحركة الدائبة ترسم صورة مهرجان شامل ، فيفد الباعة ببضاعتهم من المأكولات والمشروبات يبيعونها للعمال والفعلة ، كما تحضر إلى مكان العمل « المغانى » من سائر أنحاء البلاد ومعهم طبولهم وزمورهم أملا فى عطايا السلطان أو الأمراء ، ففى سنة ٦٨٢هـ — على سبيل المثال — خرج « السلطان المنصور قلاون » بنفسه لمباشرة العمل فى حفر خليج البحيرة «وعملت المطعومات لكل من يباشر العمل . .»

---

(١) المرجع السابق ج٢/ق/ص ٢٥١ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦/ (طبعة كاليفورنيا ص البلاليق أنواع من النظم ، تمتاز بخفة الروح عرفت فى عصر سلاطين المماليك وتتضمن كثيراً من ألوان المداعبات والفكاهة (سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٠٢).

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٢٤ — ١٢٨ (ط . دار الكتب) .

وكان يوماً من الأيام المشهودة « . . . من اجتماع العالم والرهج بالطبلخاناه من كل مكان . . . » ، « . . . وحضرت مغانى العرب وغيرهم من كل جهة . . [1] » كذلك حدث سنة ٨١٨هـ أن نودى بخروج الناس للحفير ، وخرجت طوائف المصريين إلى موقع العمل ومع كل طائفة منهم الطبول الزمور . . . وكان ذلك مدعاة لاجتماع الناس « . . . من الرجال والنساء للفرجة . . » [2] .

وغالباً ما كان يفرض على كل من أمراء المماليك مساحة معينة يكون مسئولا عن إنجازها بمن معه من الرجال [3] ، فيأتى الأمراء بأجنادهم ويحضر سائر الناس للاشتراك فى العمل ، وكان كل أمير يلزم من يسكنون داخل منطقة نفوذه بالخروج معه إلى منطقة العمل كما كان السلطان ينزل بنفسه أحياناً ، بل أن الظاهر بيبرس كان يشارك فى العمل بنفسه ويحمل القفة مملوءة تراباً على كتفه والناس تراه فيشتعل حماسهم للعمل أثناء حفر خليج أشموم طناح [4] .

وخلاصة القول أن ضبط مياه النهر وشواطئه كانت مسألة هامة يشارك الجميع فى تحمل تبعاتها ، ومما سبق نستطيع أن نلمس بسهولة أن هذه المسألة كانت تشغل بال السلاطين حتى فى أوقات الفوضى والاضطراب ، وإن لم تكن العناية التى يبذلها السلاطين فى هذا الصدد على مستوى واحد فى كل الأحيان ، فقد تعددت منشآت كل من الظاهر بيبرس والسلطان الناصر محمد بن قلاون فى هذا المجال واستجدت أراض جديدة كانت بوراً ، وزاد الخراج زيادة كبيرة ، وربما يكون ذلك راجعاً إلى طول مدة حكم كل منهما مما أتاح لكليهما فرصة التحكم فى مقدرات الدولة . وعلى النقيض من ذلك نستطيع أن نرى حوادث انقطاع الجسور وتهدم القناطر وشراقى الأراضى تكثر الإشارة اليها فى المراحل الأخيرة من عصر سلاطين المماليك فضلا عن عدم تجدد أية منشآت تخدم النهر ، ويمكن تفسير ذلك فى ضوء حالة الاضطراب والفوضى التى سادت أوجه الحياة المصرية جميعاً فى الطور الأخير من ذلك العصر .

---

(١) ابن عبد الظاهر تشريف الأيام والعصور ص ٢٤ — ٢٦ ، تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٢٣٠ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ (كاليفورنيا) .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢/ق ١ ص ٢٥١ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ٣٤٤/٣٥٤ (كالفورنيا) .

(٤) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٤هـ (مخطوط) .

وعلى كل حال فإن أعمال ضبط النهر كانت تؤتى ثمارها فى شكل المناطق الجديدة التى تستزرع . وكفاءة أعمال ضبط النهر ، فقد اشتهر عن « الناصر محمد بن قلاون » اهتمامه بشئون الرى فإذا سمع أن قرية ما لم ترو من مياه الفيضان اهتم بذلك وتابع الأمر حتى يتمكن من ريها ، بل اشتهر عنه أنه كان يفرح إذا سأله بعض الأجناد أن يبنى جسراً أو يعطيه تقاوى عن وعى بأنه « . . . لم نجمع المال فى بيت المال إلا لهذا المعنى وغيره » وكان يركب بنفسه كى يفتش على الجسور والترع والقناطر ونتيجة لذلك زاد خراج مصر زيادة هائلة ، واستجدت أراضى زراعية جديدة[١] وعند تجديد حفر خليج الإسكندرية سنة ٦٦٤هـ فى عهد الظاهر بيبرس، ثم زمن الناصر محمد تم استصلاح أراضى جديدة واستجدت عليه قرية كبيرة عرفت باسم « الناصرية » وبلغ جملة ما أنشىء على ضفتى هذا الخليج أكثر من مائة ألف فدان ، وحوالى سمائة ساقية وأربعين قرية ، كما سارت فيه المراكب الكبار تحمل المتاجر ، واستغنى أهل الثغر عن خزن المياه فى الصهاريج وعمر عليه نحو ألف غيط وعمرت عدة بلاد وتحول الناس حتى سكنوا ما عمر من الأراضى على الخليج « . . . فصارت حقولا للقصب والقلقاس والسمسم بعد ما كانت سباخاً . . . »[٢] وحين حفر الخليج الناصرى سنة ٧٢٥هـ جرت فيه السفن وعمرت عليه السواقى لرفع المياه ورى الأراضى الجديدة ، وأنشئت على ضفافه البساتين والأملاك وتنافس الناس فى السكن هناك وأنشأوا الحمامات والمساجد والأسواق ، وصار هذا الخليج « . . . موطن أفراح ومنازل لهو ومغنى صبابات وملعب أتراب[٣] . .

ولعل ما سبق يعطينا صورة واضحة لما يمكن أن يحققه ضبط النهر من نتائج فى اقتصاديات البلاد وحياة ساكنيها فقد كانت مياه النهر — كما كانت أبداً وكما تزال إلى اليوم — ثروة قومية تقف فى المحل الأول قبل أية موارد أخرى للبلاد ، وبمقدار النجاح فى التحكم فيها تكون صورة الأرض المصرية وتوزيع الألوان من حيث انتشار المساحات الخضراء أو انحسارها ، وما يمكن أن يؤدى إليه ذلك من نتائج . صحيح أن الأراضى الجديدة كانت توزع فى شكل إقطاعات على المماليك وأجنادهم ، لكن

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٩٠/١٩١ (ط . دار الكتب) .
(٢) المرجع السابق : نفس الجزء ص ٨١ — ٨٢ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢/ق ١ ص ٢٦١ — ٢٦٢ ، الخطط جـ ٢ ص ١٤٤ — ١٥٠ .

ذلك كان يعكس نوعاً من الرخاء الذى قد تمتد آثارة إلى السواد الأعظم من سكان البلاد ولو على شكل الفتات .

طريقة قياس زيادة النهر وإعلانها :

يؤخذ قاع النيل (وهو ما بقى من الماء القديم فى النهر ليكون أساساً تحسب عليه الزيادة) فى السادس والعشرين من شهر بؤونة، ويبدأ النداء على الزيادة فى اليوم التالى[١] وفى عصر كل يوم يقيس صاحب المقياس مقدار الزيادة، وفى صباح اليوم التالى يخرج المنادون يعلنون مقدار زيادة النيل بالأصابع فقط دون أن « يصرحوا بذرع » (أى دون التصريح بعدد الأذرع)[٢] وذلك خوفاً من حدوث الاضطرابات بين جموع العامة إذا كان النيل ناقصاً . ويذكر بيلوتى الكريتى[٣] الذى زار مصر فى مطلع القرن الخامس عشر أنه فى صباح كل يوم كان عدة فرسان يرفعون الأعلام فوق أكتافهم، ويتجهون إلى المقياس كى يعرفوا مقدار زيادة النهر ثم يسيرون خلال طرقات القاهرة يصيحون « أن النهر زاد كذا » وهؤلاء الفرسان الذين يصفهم بيلوتى هم الذين أطلقت عليهم المصادر العربية اسم « مناديو البحر » الذين كانت وظيفتهم مشابهة لدور وسائل الإعلام فى عصرنا الحاضر من حيث نقل أخبار النهر اليومية إلى عامة الناس[٤] .

وفى كل يوم كان صاحب المقياس يكتب رقاعاً إلى أعيان الدولة « من أرباب السيوف والأقلام »[٥] (مثل أصحاب الوظائف من الأمراء وقضاة القضاة من المذاهب الأربعة ، وكاتب السر ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش والمحتسب ومن فى معناهم) كان صاحب المقياس يكتب إليهم بمقدار زيادة النيل فى ذلك اليوم من الشهر العربى وموافقه من الشهر القبطى ، وعدد الأذرع التى صارت إليها الزيادة ، ولا يطلع على ذلك عامة الناس خوفاً من البلبلة والاضطراب الناتج عن معرفة الناس بقصور النهر، وحين يكمل النهر ستة عشر ذراعاً (علامة الوفاء) يبدأ « مناديو البحر » فى التصريح

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٥٨ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٧ .

(٣) Dopp : L'Egypte au Com. pp. 20 - 21.

(٤) ابن أياس : بدائع الزهور جـ ٥ ص ٥٦ (نشرة زيادة) .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٩٧ .

بعدد الأذرع « . . ويصير ذلك مشاعاً عند كل أحد . . . » وعلامة الوفاء أن يسدل الستار الخليفى على الشباك الكبير فى صدر دار المقياس فإذا شاهده الناس استبشروا بالوفاء[1] .

مقاييس النيل :

اعتبرت زيادة النيل فى كل العصور بمثابة « ترمومتر » الثروة القومية ومن ثم كان طبيعياً أن يهتم المصريون منذ فجر تاريخهم بمقاييس النيل التى بنيت على النهر من أسوان حتى القاهرة ونستطيع تقسيم هذه المقاييس إلى قسمين : (١) مقاييس ما قبل الإسلام (٢) مقاييس مصر الإسلامية .

وبالنسبة لمقاييس القسم الأول لا نجد فى المراجع العربية سوى صورة مضطربة عنها يغلب عليها الجو الأسطورى وتشوبها الخرافات . وتقول الروايات العربية إن أول من قاس النيل بمصر هو خصليم السابع[2] (من أبطال الأساطير العربية التى حيكت حول تاريخ مصر قبل الإسلام) . ويقال أنه صنع بركة تركب عليها صورتا عقاب من نحاس ذكر وأنثى يجتمع عندهما الكهنة والعلماء فى يوم مخصوص من السنة ، ويتكلمون بكلام معين فيصفر أحد العقابين فإذا صفّر الذكر استبشروا بزيادة النيل، وان صفّرت الأنثى استشعروا عدم الزيادة فهيئوا ما يحتاجون إليه من الطعام لتلك السنة .

وينسب المؤرخون مقياس منف إلى يوسف عليه السلام ويقولون إن هذا المقياس أول مقاييس مصر قبل الإسلام[3] كذلك ينسبون إلى دلوكة العجوز (من ملوك مصر بعد الطوفان وفقاً لروايات الأساطير العربية) بناء مقياسين بأنصنا وأخميم من بلاد الصعيد[4] ولكن الأسعد بن مماتى ينسب هذين المقياسين إلى ملوك العجم دون تحديد

---

(١) السيوطى : كوكب الروضة ص ٤٧ (مخطوط) .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٧ .

(٣) المنوفى : الفيض المديد ص ٤٠ (مخطوط) ، الحلى : مبدأ النيل ص ٦ — ٦ (مخطوط) ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٧ — ٢٩٨ ، ابن الوردى : خريدة العجائب ص ١٥٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٧٤ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٧٥ — ٧٦ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ١٩٨ ، السيوطى : كوكب الروضة ص ٧٤ (مخطوط) ، المنوفى : الفيض المديد ص ٤٠ مخطوط .

الأسماء ، ويضيف اليهما مقياساً بناه القبط بقصر الشمع [١] .

أما المقاييس التى استحدثها العرب بعد فتح مصر فهى : (١) مقياس أسوان الذى أقامه عمرو بن العاص بعد فتح مصر ، كما ينسب إلى هذا الفاتح مقياس آخر بدندرة من بلاد الصعيد [٢] .

(٢) مقياس آخر بنى فى عهد معاوية بن أبى سفيان بأنصنا ، وقد ظل هذا المقياس مستخدماً حتى بنى عبد العزيز بن مروان مقياساً غيره بحلوان فى سنة ٨٠هـ [٣] .

(٣) المقياس الذى بناه أسامه بن زيد التنوخى بجزيرة الروضة سنة ٩٧هـ، وهو أكبر هذه المقاييس جميعاً وقد تهدم بفعل مياه النهر [٤] ، ويذكر بعض المؤرخين أن هذا المقياس هو نفس المقياس الذى ظل مستخدماً لقياس الزيادة فى عصر سلاطين المماليك [٥] إلا أننا لا نستطيع الأخذ بهذا الرأى لأنه مخالف لإجماع المؤرخين .

(٤) وفى سنة ١٩٩هـ بنى الخليفة المأمون مقياساً بجزيرة الروضة ولكنه لم يتمه ، ويبدو أنه كان محاولة لترميم المقياس الذى بناه « أسامة بن زيد التنوخى »، وعلى كل حال فإن الخليفة المتوكل بنى مقياساً مكان هذا المقياس وربما يكون قد أتم المقياس الذى بناه الخليفة المأمون ، وقد ظل هذا المقياس الذى بنى سنة ٣٤٧هـ مستخدماً لقياس النيل طوال عصر سلاطين المماليك ، وقد أصلحه « أحمد بن طولون » سنة ٢٥٩هـ [٦] .

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٧٥ — ٧٦ — (ينسب القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٧) والمقريزى (الخطط ج ١ ص ٥٦/٥٧) هذا المقياس إلى الروم وليس القبط .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٥٦ — ٥٧ .

(٣) السيوطى : كوكب الروضة ص ٧٤ (مخطوط) ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٧٥/٧٦ ، الخطط المقريزية ج ١ ص ٥٧ .

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٥٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٧٤ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٧٢ .

(٥) المحلى : مبدأ النيل على التحرير ص ٦ — ٧ (مخطوط) .

(٦) المنوفى : الفيض المديد ص ٤٠ (مخطوط)، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٧٥ — ٧٦ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٥٧ (يذكر ابن دقماق أن هذا المقياس قد بنى سنة ٢٤٥ هـ الانتصار ج ٤ ص ١١٥) ، انظر كذلك السيوطى : كوكب الروضة ص ٧٤ وكذلك القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٩ .

ويهمنا بطبيعة الحال أن نقف على وصف المقياس الأخير[١] — وهو الذى ظل مستخدماً طوال عصر سلاطين المماليك — إذ كانت دار المقياس تقع فى الطرف الجنوبى من جزيرة الروضة ، وهى عبارة عن برج عظيم حوله بسطتان تردان عنه مياه النهر وثمة أبنية كثيرة داخل هذا البرج ، ودائرة شبابيك ، وفى الناحية الشرقية من هذا المبنى شباك كبير (هو الذى يعلق عليه الستر الخليفتى علامة الوفاء) ، وبجوار هذا المبنى فسقية كبيرة فى وسطها المقياس ، وبين الفسقية والبرج باب ، ويمكن النزول للفسقية بواسطة درج (سلالم) دائرية . والمقياس نفسه عبارة عن عمود رخام مثمن قسم إلى تسع عشرة قطعة طول كل منها ذراع ، وقسمت كل منها إلى أصابع ، وقد قسمت كل من الإثنتى عشر ذراعاً الأولى إلى ثمانية وعشرين إصبعاً ، بينما قسمت كل من الأذرع الباقية إلى أربعة وعشرين إصبعاً[٢] وكانت قاعدة المقياس حوالى ذراع ، وبلغ طول عمود المقياس تسعة عشر ذراعاً فقط ، ومع ذلك فإن الزيادة كان ينادى عليها أحياناً عشرين ذراعاً وأكثر . وكان قياس ذلك يتم عن طريق ملاحظة الخط الكوفى الذى بداير الفسقية ، ويدخل بوسط هذا العمود الرخام عمود حديد يمسك قطع الرخام ، وبأعلى السقالة وهى من الخشب المجوف ومحشوة بالرصاص كى تعطى عمود المقياس الثقل المطلوب لتثبيته ، ويصل ماء النيل إلى هذه الفسقية خلال فتحات ثلاث بعضها فوق بعض ، وطول كل منها حوالى سبعين ذراعاً ، وذلك حتى يظل الماء ساكناً داخل الفسقية بعيداً عن أمواج النهر ومن ثم يمكن قياسه ، وكانت هناك قوة كبيرة من الجنود تتولى حراسة دار المقياس .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٥٨ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١١٤ ، ابن الوردى : خريدة العجائب ص ١٥٦ ، المنوفى : الفيض المديد ص ٤١ — ٤٢ (مخطوط) .

(٢) لدينا روايتان حول السبب الذى من أجله قسم عمود المقياس على هذا النحو ، تقول الرواية الأولى أنه لما فتحت مصر عرف عمر بن الخطاب ما يلقاه أهلها من القحط عند قصور النيل فاقترح عليه على بن أبى طالب أن يبنى مقياساً ويقسمه على هذا النحو (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٧٤ — ٣٧٥) بينما تقول الرواية الثانية أن المهندسين حين اجتمعوا لعمل قانون الرى للبلاد المصرية أخبروا الخليفة المتوكل أن كفايتها من ستة عشر ذراعاً ولكنهم حين أعادوا النظر اكتشفوا أن الكفاية فى ثمانية عشر ذراعاً وخشوا أن يتهمهم الخليفة بالعجز ففضوا الذراعين على الإثنتى عشر ذراعاً الأولى لتكون كل منها ثمانية وعشرين إصبعاً ، وتبدو الرواية الثانية أكثر منطقية كما أن المقياس الذى بناه المتوكل وهو الذى نصفه فى السطور أعلاه هو الذى ظل مستخدماً طوال عصر المماليك ، زد على ذلك أن سبب التقسيم على هذا النحو غير واضح فى الرواية الأولى (المنوفى : الفيض المديد ص ٤٠) .

كان أقباط مصر هم الذين يتولون قياس النيل حتى عام ٢٤٧هـ حين بنى الخليفة المتوكل مقياس الروضة فأمر بعزل النصارى من ولايته ، وأن يتولاه مسلم ، فتم اختيار « أبى الرداد المعلم » واسمه «عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى الرداد المؤذن» ، وأجرى عليه صاحب خراج مصر آنذاك راتباً شهرياً قدره سبعة دنانير[١] ، وظل هذا المنصب متوارثاً فى عائلة أبى الرداد حتى بعد نهاية عصر سلاطين المماليك ، وظل (القياس) من عامة الموظفين يخلع عليه السلطان فى أعياد الوفاء وله راتب سنوى وخلعة مقررة[٢] .

احتفالات وفاء النيل وكسر الخليج :

كان بلوغ النيل ستة عشر ذراعاً بشيراً بوفاء النهر ، وإيذاناً ببدء ذلك المهرجان القومى الضخم احتفالا بهذه المناسبة التى يشارك الجميع فى احيائها باعتبارها عيداً قومياً ، يهتم الجميع به ابتداء بالسلطان وانتهاء « بالعامة » — كما دأبت المراجع المعاصرة على تسمية أبناء الشعب — وكانت تحيط باحتفالات وفاء النيل ، وكسر الخليج كل مظاهر الفخامة والعظمة التى ميزت تلك العصور : فإذا أتم النهر الستة عشر ذراعاً يعلق على الشباك الكبير فى الجهة الشرقية من دار المقياس ستر أصفر فيعلم الناس بالوفاء ، وتكون هذه الليلة من الليالى العظيمة بمصر والقاهرة ، يوقد فيها الأهالى القناديل والشموع ويتحول ليل القاهرة إلى نور من كثرة الأضواء ، ويحضر كبار الأمراء ومعهم الاستادار بالخلع التى توزع عادة فى هذه المناسبة ، ويحضر مقرئو القرآن الكريم يبيتون بدار المقياس ويتناوبون القراءة طوال الليل ، كما يحضر المغنون الذين يغنون لمن يكون موجوداً فى دار المقياس طوال الليل[٣] .

وفى صباح اليوم التالى يعمل سماط حافل من الشواء والحلوى والفاكهة ويحضره السلطان أو غيره ممن يقوم مقامه من الأمراء ويتخاطف العامة السماط « . . . ولا يمنع أحد من ذلك » ، وفى بعض الأحيان كان يجبى من أهل مصر والقاهرة ثمن الحلوى

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٥٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٧٥ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٧٦ .

(٢) النويرى : : نهاية الأرب جـ ١ ص ٦٤ ، السيوطى : كوكب الروضة ص ٧٤ (مخطوط) .

(٣) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ١١٤ ، ص ١١٥ .

والفاكهة والشواء الذى يوضع فى السماط الذى يمد فى دار المقياس يوم الاحتفال بوفاء النيل ، ولكن « السلطان المنصور قلاون » أبطل ذلك وجعل مصروفه من بيت المال[١]. وبعد الانتهاء من السماط يبدأ الاحتفال وهو مرحلتان : (١) تخليق المقياس (٢) وكسر سد الخليج . . . وكانت المرحلة الثانية تتم فى اليوم الثالث أو الرابع من المرحلة الأولى أيام الفاطميين ولكن الاحتفال بمرحلتيه صار يتم فى يوم واحد أيام المماليك[٢] .

ويبدأ الاحتفال بوفاء النيل[٣] بنزول السلطان من قلعة الجبل وفى خدمته قادة الجيش والأعيان وخواص دولته فى الحراريق المزينة بالأعلام والصناجق وسائر أنواع الزينات ، وفيها الطبلخانات والنفوط حتى يصل الموكب إلى دار المقياس ، وهناك يمتد السماط السابق ذكره ، وبعد الفراغ من الطعام يذاب الزعفران فى ماء الورد فى إناء من الفضة ويعطى السلطان الإناء لابن أبى الرداد الذى يلقى نفسه بقماشه (بملابسه) فى الفسقية ومعه ذلك الإناء الفضى فيخلق عمود المقياس بالزعفران ، ثم يخرج السلطان أو نائبه فيجلس بالشباك الكبير تحت الستر ، ويفرق الخلع على « من له عادة بذلك » مثل والى الفسطاط ، ورئيس الحراقة السلطانية (الذهبية)[٤] « ورُيسا حراريق الأمراء » ويؤتى بحراقة السلطان إلى ذلك الشباك فينزل إليها ويسبح بها وحوله حراريق الأمراء المزينة بكل أنواع الزينات ، وقد اختفت صفحة النهر تحت عشرات المراكب والقوارب المليئة بالمتفرجين يسيرون خلف الحراقة السلطانية وحراريق الأمراء حتى يدخل الموكب إلى فم الخليج وتسير حراقة السلطان المعروفة بالذهبية وحراريق الأمراء يلعب بها ويرمى بمدافع النفوط على مقدمتها فى استعراض نهرى كبير ، ويستمر هذا الموكب حتى موقع سد الخليج حيث يكون نائب السلطنة أو حاجب الحجاب ومعه بعض كبار

---

(١) ابن أياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٢١ (ط . بولاق) .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥١٢ — ٥١٤ .

(٣) الكتبى : مباهج الفكر جـ ١/ق ٢ ورقة ٨٦ (مخطوط) ، السيوطى : حسن المحاضرة : جـ ٢ ص ٣٠٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٣٣ (ط . دار الكتب) ، ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٨٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٧ — ٤٨ ، ابن دقماق : الانتصار : جـ ٤ ص ١١٥ .

(٤) كانت هذه المركب من شعار المملكة وقد أبطلها الأشرف قايتباى (بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٠١ ط . بولاق) ثم أعيدت ثانية سنة ٩١٩هـ حين أمر السلطان الغورى بانشاء مركب مشابهة وزينت بالصناجق والأعلام ووضعت فيها الطبول والزمور والنفوط (بدائع الزهور جـ ٤ ص٢٩٨ نشر محمد مصطفى) .

الأمراء منتظرين فوق قنطرة السد ، وتحمل طبلخانة السلطان على الأكاديش وينزلون قنطرة السد ، وهناك يتوجه السلطان بحصانه من فم الخليج إلى السد الترابي حيث ينزل من حصانه ويمسك بمعول من الذهب الخالص ويضرب السد ثلاث ضربات ، ثم يركب ثانية فيأتي جمع غفير من الناس بفئوسهم فيحفرون هذا السد حتى يجرى الماء فى الخليج ثم ينصرف السلطان إلى القلعة[1]. ولم يكن كل سلاطين المماليك يحرصون على حضور هذه الاحتفالات بأنفسهم ، مما جعل المؤرخين يجدون فى اشتراك السلطان شخصياً فى هذه الاحتفالات أمراً جديراً بالتسجيل[2] .

وقد ظلت مظاهر الفخامة والأبهة والعظمة تحيط باحتفالات وفاء النيل وكسر الخليج حتى أواخر عصر سلاطين المماليك ففى سنة ٩٠٥ ﻫ توجه الأمير طومانباى لفتح السد ، وفرق على جماهير المتفرجين الحلوى والفاكهة ، ونثر للعوام الفضة عند السد ، وكان يوماً مشهوداً[3]، وشهد عام ٩٢٢ﻫ آخر احتفالات المماليك بوفاء النيل بحضور الأمير طومانباى نائب الغيبة آنذاك فى احتفال ضخم[4] رغم الحرب الدائرة ضد العثمانيين آنذاك .

ولكن الفتن والاضطرابات السياسية كثيراً ما كانت تطغى على بهجة هذه الاحتفالات ففى سنة ٨٩٩ﻫ كسر سد الخليج بدون احتفال ، إذ كانت القاهرة تموج بفتنتها ، وحروب الشوارع بين طوائف المماليك قائمة على أشدها ، ولم يتوجه للفرجة أحد الناس « ... لأن كل أحد كان مشغولا بنفسه عن ذلك[5] .. » وفى بعض الأحيان كان السلطان يمتنع عن الاشتراك فى هذه الاحتفالات خوفاً على حياته[6] .

وكان الاحتفال بهذه المناسبة يتم أثناء النهار ، وقد ربط بعض مفسرى القرآن الكريم بين قوله تعالى إخباراً عن فرعون « قال موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس

---

(١) Dopp : L'Egypte au Com , p. 21.

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ١٩٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٧ ، وكوكب الروضة ص ٩٨ (مخطوط) .

(٣) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٧٤ (ط . بولاق) .

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٧ (ط . بولاق) .

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٣١٧ (ط . بولاق) .

(٦) المقريزى : السلوك ج ٣/ق ٣ ص ١٠٢٢ .

ضحى » وبين الاحتفال بوفاء النيل على أساس أن اجتماع الناس للاحتفال بتخليق المقياس يكون وقت الضحى[١] ، ولكن حدث سنة ٩٠٤هـ أن كسر السد ليلا — ولعلها المرة الوحيدة التى حدث فيها ذلك — والسبب كما يورده المؤرخ ابن أياس هو أن السلطان أبا السعادات محمد بن قايتباى أراد أن يحضر الاحتفال بنفسه ، ولكن الأمراء منعوه خوفاً من الفتنة ، فنزل ليلا فى خواصه وفتح السد ، وأصبح الناس ليجدوا الماء فى الخجان والبرك فتعجبوا لأن ذلك « ما وقع قط فى الجاهلية ولا فى الإسلام » ، « وقد ضيع على الناس فرحتهم بيوم الوفاء »[٢] .

وحين يبلغ نهر النيل علامة الوفاء ، كانت تكتب البشائر بذلك من ديوان الإنشاء وترسل إلى سائر البلاد لتطمئن قلوب العباد ولتكون بمثابة إشعار باستحقاق الخراج ، وتكون البشارة أيضاً بوفاء النيل ، والسلامة فى الركوب لكسر الخليج « وهذه البشائر من خصائص الديار المصرية التى تنفرد بها[٣] » وفى بعض الأحيان كانت البشارة بوفاء النيل تتخذ حجة لجباية بعض الأموال للبريدى (حامل البشارة) ، وإذا كانت الدولة عادلة « لا يجبى للبريدى شىء بسبب ذلك[٤] » .

الأعياد الأخرى (عيد الشهيد ، عيد النيروز) :

لم تكن احتفالات وفاء النيل وكسر الخليج هى المظهر الاجتماعى الوحيد المرتبط بالنهر العظيم ، بل ثمة من الأعياد ومظاهر الحياة الاجتماعية ما كان مرتبطاً بالنهر ارتباطاً مباشراً ، من ذلك «عيد الشهيد» ، «وعيد النيروز» وغيرهما من أعياد النصارى ، كما كانت صفحة النهر مجالا لمتنزهات المصريين ولهوهم ومراحاً لطربهم .

كان «عيد الشهيد» عيداً دينيًّا وقوميًّا فى آن واحد ، وكان يقام سنويًّا فى ثامن بشنس من شهور القبط ، وكان الاحتفال به مهرجاناً كبيراً يقام على ساحل شبرا ،

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٦٤ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٦٠ الكتبى : مباهج الفكر جـ ١ ق ٢ ورقة ٨٦ (مخطوط) .

(٢) ابن أياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٤٥ ط . بولاق .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٦٦ ، المقريزى : السلوك جـ ١ / ق ٣ ص ٦٨٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٣٢٨ — ص ٣٣٠ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٣٣٠ .

والسبب فى إقامته ما كان الأقباط يزعمونه من أن النهر لم يكن ليزيد إلا بعد غسل إصبع أحد القديسين فى مائه ، وكان هذا الإصبع يحفظ فى تابوت بكنيسة فى شبرا وقيل انه أصبع أحد أسلافهم من الشهداء[١] وفى هذا العيد يتوافد الأقباط من شتى أنحاء البلاد ، كما يخرج أهل مصر والقاهرة على اختلاف طبقاتهم ودياناتهم إلى شبرا لحضور هذا المهرجان الضخم ، حيث تنصب الخيام بأعداد هائلة على ساحل النيل وفوق الجزر ، ويجتمع الفرسان بخيولهم يرقصون بها على إيقاعات الطبول وأنغام الزمور ، وتجتمع المغانى من عرب وغيرهم من كل أنحاء البلاد « . . . ولا يبقى مغن ومغنية ، ولا صاحب لهو ، ولا رب ملعوب ، ولا بغى ولا مخنث ، ولا باض ولا خليع ، ولا فاسق ولا فاتك إلا ويخرج لهذا العيد . . .» وكانت تصحب هذا العيد مظاهر الفساد والانحلال والفوضى إذ ترتكب المعاصى جهراً ، وتثور الفتن ، وتقع حوادث القتل[٢] . . . وكانت الاحتفالات بهذا العيد تمتد أحياناً إلى يومين بثلاث ليال[٣] ، وكان فلاحو شبرا يعتمدون على مبيعاتهم من الخمور فى هذا العيد للوفاء بما عليهم من الخراج[٤] مما يبين مقدار ما كان يراق من الخمور فى هذا العيد .

وفى سنة ٧٠٢هـ أبطل بيبرس الجاشنكير الاحتفال بهذا العيد بسبب مظاهر الفساد والانحلال التى كانت تصاحب الاحتفال به وحاول الأقباط إعادته ثانية دون جدوى وظل كذلك حتى أعاده « السلطان الناصر محمد بن قلاون » سنة ٧٣٨، والسبب فى ذلك أن الأمير « يلبغا اليحياوى » ، والأمير « الطنبغا المارديني »طلبا الخروج للصيد ولكن السلطان لم يوافق « . . . لشدة غرامه بهما وتهتكه فى محبتهما . . . » ، فعمل

---

(١) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٦٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٦٩ ،والمقريزى : السلوك جـ ١/ق ٣ ص ٩٤١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٠٢ (ط . دار الكتب) .

(٢) السيوطى : كوكب الروضة ص ١٣١ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٦٨ ،السلوك : جـ ١/ق ٣ ص ٩٤١ .

(٣) المقريزى السلوك جـ ٢/ق ٢ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٩٩ ، المقريزى : السلوك جـ ١/ق ٣ ص ٩٤١ ، الخطط جـ ١ ص ٦٨ .

عيد الشهيد ليصرفهما عن ذلك ، وكانت مدة إبطاله ست وثلاثين سنة ثم أبطل الاحتفال به نهائياً عام ٧٥٥هـ بعدما هدم الأمير «صرغتمش» الكنيسة ، وأحرق التابوت الذى فيه الإصبع فى الميدان الكبير بحضور السلطان ثم ذرى رماده فى النهر [١] .

وثمة عيد آخر كان قبط مصر يحتفلون به وهو «عيد النيروز» ويحتفل به فى أول شهر توت ، وكان متوارثاً عن قدماء المصريين الذين جعلوه فى هذا الوقت تكريماً للنهر بتمام مياهه ، وفى هذا اليوم كانت تعطل أسواق القاهرة ، وقد شارك المسلمون إخوانهم النصارى فى الاحتفال بهذا العيد ، وكانوا يصنعون بعض الحلاوى ليفرقوها صباح يوم العيد على الأقارب والأحباب [٢] وكان من عادة القبط فى هذا اليوم إيقاد النيران والتراش بالماء [٣] فى الشوارع والطرقات وفوق مياه النهر والبرك والخلجان وفى سائر أماكن النزهة ، ومن خصائص هذا اليوم أنه كان يعمل فى عصر سلاطين المماليك موكباً «كرنفال» يجوب شوارع القاهرة وطرقاتها ويتسم بالتهريج ويجبون من الناس بعض الأموال والأشياء والا أهانوهم بصب التراب والماء عليهم وكانت مظاهر الفساد والفجور والفوضى بشتى ضروبها تصحب الاحتفال بهذا العيد ، وقلما كان يخلو أحد هذه الأعياد من حوادث القتل وقد أبطله السلطان الظاهر برقوق [٤] (قبل سلطنته) ولكنه أعيد بعد ذلك فى عهد السلطان فرج بن برقوق [٥] كذلك كان المصريون يحتفلون بعيد الصليب فى السابع عشر من توت ، وقد ارتبط كل من هذين العيدين بفتح سدود الترع والخلجان لرى الأراضى وقت الفيضان وكانت الجسور التى تفتح فى عيد النيروز تسمى «النيروزيات» كما كانت الجسور التى تفتح فى عيد الصليب تسمى « الصليبيات » .

وثمة ملاحظة يجدر بنا أن نسجلها فى هذا المقام وهى أن هذه الأعياد المرتبطة

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢/ق ٣ ، الخطط جـ ١ ص ٦٨ .

(٢) ابن أياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٠٦ ، المقريزى : السلوك جـ ٢/ق ٣ ص ٩٢٦ ويذكر بعض المؤرخين مثل عبد الرحمن السيوطى (حسن المحاضرة جـ ٢ ص٢٩٩) وابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٠٢) أن هذا العيد قد أبطل نهائياً منذ عام ٧٠٢هـ .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى : ص ٢٠١ — ٢٠٢١ (الطبعة الأولى) .

(٤) السيوطى : كوكب الروضة ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٥) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٢٠٣ .

بنهر النيل ـ بما فيها عيد وفاء النيل ـ كانت أعياداً مصرية خالصة متوارثة عن قدماء المصريين ، ولم تكن تقليداً مستحدثاً جلبه العرب الفاتحون معهم . وعلى كل حال فإن هذه الأعياد لم تكن المظهر الاجتماعى الوحيد المرتبط بالنهر ، فقد كانت صفحته مجالا لتنزهات المصريين وأفراحهم كما كانت جزائره محطاً لتجمعات أفراحهم ولهوهم وطربهم ، وكثيراً ما نقرأ فى الكتب والمؤلفات المعاصرة أن بعض السلاطين قد أصدر أمره بمنع الناس من ركوب النيل بسبب مظاهر الفساد والانحلال التى تتبدى واضحة فى هذه التجمعات من ذلك ما حدث سنة ٧٠٦هـ حين منع الأميران « بيبرس » و « سلار» المراكب من دخول الخليج الحاكمى للفرجة[1] كذلك حدث سنة ٧٨١هـ أن منع الأميران برقوق وبركه مراكب النزهة من دخول الخليج الناصرى بسبب « . . . ما ينتهك فى المراكب من الحرمات ، ويتجاهر به من الفواحش والمنكرات . . . »[2].

النيل والحياة السياسية :

« النيل قوام الحياة المصرية بشتى وجوهها » ـ هذه حقيقة وبديهية لا شك فيها ، فإن أعمال ضبط النهر لم تكن لتتم بمجهود فردى ، ولا بد من مجهود بشرى جماعى ضخم حتى تعد الأرض لاستقبال البذرة ، فما جدوى مياه النهر بدون ضبطه والتحكم فيه ؟ وكذلك فإن زراعة الرى ـ كما هو الحال فى مصر ـ إذا تركت بغير ضابط يمكن أن تضع مصالح الناس المائية فى مواجهة بعضها البعض مواجهة متعارضة ودموية ، وهكذا فإنه بغير ضبط النهر يتحول النهر العظيم إلى أداة خراب وبغير ضبط الناس يتحول توزيع الماء إلى عملية دموية[3]. وهكذا يفرض الإطار الطبيعى وجود التنظيم الاجتماعى شرطاً أساسياً للحياة ، ويتحتم على الجميع التنازل طواعية عن كثير من حرياتهم لتخضع لسلطة أعلى توزع الماء بالعدل بين سكان حوض النيل فى شطره المصرى ، والمحصلة ـ بطبيعة الحال ـ هى المركزية الصارخة التى ميزت الحكم المصرى طوال التاريخ .

ينسحب هذا الكلام على عصر سلاطين المماليك ـ كما ينسحب على غيره ـ

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٤٢ .

(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة ، ص ١٥٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٠٦ .

(٣) جمال حمدان : شخصية مصر ص ٤٨ ـ ٤٩ .

فبقدر ما كانت الحكومة المركزية فى القاهرة قوية وقادرة — مثل عهد الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاون — كلما انعكس ذلك على المنشآت الخاصة بضبط النهر وازدادت كفاءة أجهزة الرى والعكس صحيح تماماً . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان للنهر أثره الكبير فى حياة البلاد السياسية بشكل مباشر — كما كان له أثره فى حياتها الاقتصادية والاجتماعية — فإذا قصر النهر عن حد الوفاء تسبب ذلك فى حدوث حالة من الفوضى الشاملة التى تسود كل البلاد ، إذ يتبع الغلاء والوباء هبوط النيل فى أحيان كثيرة ، وتضطرب الأمور ، وتكثر حوادث الاعتداء على موظفى الدولة مثل الوالى والمحتسب ، وقد يعزل السلطان المحتسب أو الوالى إذا نسب اليه سوء التدبير أثناء هذه الأزمات ، كما كان بعض هؤلاء الموظفين يستقيل من تلقاء نفسه .
وفى ذلك العصر الذى تحكمت فيه الأفكار الميتافيزيقية والتفسيرات الغيبية للظواهر الطبيعية والاجتماعية كان الناس يربطون كثيراً بين السلطان الحاكم ، وبين هذه الأحداث تشاؤماً أو تفاؤلاً بحكمه ، فقد حدث زمن السلطان العادل كتبغا (٦٩٤ — ٦٩٥هـ) أن قصر نهر النيل فألمت بالبلاد كارثة المجاعة يتبعها الوباء الذى تسبب فى هلاك الكثيرين وأدى إلى حدوث حال من الفوضى الشديدة « . . . وتخلخل أمر الديار المصرية »[1] ، وقد فشل حكم هذا السلطان فشلا ذريعاً ، لأنه لم يحظ بتأييد الشعب أبداً أو الأمراء المماليك إذ شهد عهده سلسلة من سنوات نقص النيل ، وما يتبع ذلك من « الغلاء والفناء » ، ارتبطت فى أذهان الناس بسوء طالعه وسوء تدبيره[2] وقد وصف ابن عبد الظاهر أيام العادل كتبغا بأنها « . . . شر أيام لما فيها من قصور مد النيل وغلاء الأسعار ، وكثرة الوباء فى الناس . . »[3] وفى سنة ٧٠٩ قصر نهر النيل عن الوفاء ، واستسقى الناس وتبع ذلك الغلاء « المجاعة » فنسب الناس ذلك إلى سوء طالع كل من الأميرين بيبرس وسلار (كان بيبرس الجاشنكير سلطاناً والأمير سلار نائبه) ونظموا أغنية تسخر منها تقول كلماتها « سلطاننا ركين ، ونائبنا دقين ، يجينا الماء من أين هاتوا لنا الأعرج ، يجىء الماء ويتدحرج » وذلك تشاؤماً بطلعة بيبرس الجاشنكير الذى كان لقبه « ركن الدين » فأطلق الناس عليه اسم « ركين » تصغيراً لشأنه وكان

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥٩ (ط . دار الكتب) .
(٢) Lane-poole : A Hist. of Egypt pp. 289 - 290.
(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ٢٩١ .

الأمير سلار أجرداً ، وفى ذقنه شعيرات قليلة فأسموه « دقين »، وكان الناصر محمد ابن قلاون — المعزول آنذاك — به بعض عرج ، فأسموه الأعرج ، وكان هذا الغلاء الناتج عن قصور النيل فى عهد السلطان بيبرس الجاشنكير من الأسباب القوية فى فى فشل حكمه[١].وقد حدث سنة ٧٨٢هـ أن بلغت زيادة النيل أربعة أصابع من ثمانية عشر ذراعاً ، ثم هبط ، فارتفعت أسعار الغلال ، وتكالب الناس على شرائها وتخزينها « طلبا للفائدة » ، مما أوجد حالة من القلق العام ، والفوضى الشاملة « ... فاستغاثت العامة فى عزل الدميرى من الحسبة وهموا برجمه مراراً . . » مما جعله يختفى بمنزله خوفاً على نفسه ، وتم عزله وتعيين آخر محله ففرح الناس بذلك[٢] .

وهناك أمثلة كثيرة غير ما أوردناه تدل بوضوح على أن النيل كان يلعب دوراً هاماً فى الحياة السياسية الداخلية للبلاد ويؤثر فيها تأثيراً مباشراً . وكما كان للنيل أثره فى الحياة السياسية وشئون الحكم ، كانت أحوال البلاد السياسية تؤثر بدورها فى سير أعمال ضبط النهر وكفاءة جهاز الرى ، فمن البديهى أنه لابد من وجود حكومة قوية فى القاهرة حتى يمكن إنجاز هذه الأعمال ، فإذا كان السلطان قوياً سارت أعمال ضبط النهر وصيانة الجسور وبنائها ، وشق الترع وتطهيرها وبناء القناطر على أكمل وجه ، والدليل أن السلطان الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاون قد خلفا الكثير من هذه المنشآت التى عدها المؤرخون مـــن مآثرهما . أما إذا كانت الحكومة ضعيفة فان ذلك كان ينعكس على مرافق الرى التى ينخرها الإهمال ، ومن ثم تكثر حوادث انقطاع وانهيار الجسور ، وانسداد الترع بالرمال والطين (كما حدث لخليج المنهى أو بحر يوسف) وتداعى القناطر وتصدعها ، وتتعرض الأراضى الزراعية لأخطار الجفاف والعطش أو الغرق . ويلخص أحمد بن محمد المنوفى (ت ٩٣١هـ) ما صارت عليه الحال أواخر ذلك العصر بقوله « . . . تهدم فى زماننا الجسور وقطعت وتحكم الفساد وخربت البلاد ، ووسد الأمر إلى غير أهله ووضع الشىء فى غير محله ، ولا

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥٥ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٤٣ (ط . دار الكتب) ، ابن أياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٢٠ (ط . بولاق) ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٠٠ .
Lane - poole : A Hist. p. 305.

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣/ق١ ص ٣٩٥ .

جرم أن حل بالناس ما حل، وانفرط عقد المملكة وانحل . . . »[1] .

وفى بعض الأحيان كان النيل يؤثر فى السياسة الخارجية للبلاد بشكل مباشر ، مثال ذلك ما كان يحدث فى بعض الأحيان حين يلجأ « متملك الحبشة » إلى اتخاذ نهر النيل وسيلة للضغط على سلطان مصر وتهديده بقطع النيل وتحويله حتى لا يسير إلى مصر ، كما حدث سنة ٧٢٦هـ حين وردت رسل متملك الحبشة إلى بلاط السلطان الناصر محمد بن قلاون ومعهم كتاب من صاحب الحبشة ، يطلب منه إعادة ما خرب من كنائس النصارى فى مصر ومعاملتهم بالحسنى وإلا فإن صاحب الحبشة سيخرب مساجد المسلمين فى بلاده « . . . ويسير النيل حتى لا يعبر إلى مصر . . . » ولكن الناصر محمد لم يلتفت إلى هذا التهديد[2]. كذلك حدث سنة ٨٤٧هـ أن جاءت إلى مصر رسل متملك الحبشة ومعهم كتاب منه إلى السلطان يتضمن التهديد بقطع النيل عن مصر إذا لم تتوقف عمليات اضطهاد المسيحيين المصريين ، وجاء فى هذه الرسالة « . . . وليس يخفى عليكم ، وعلى سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا ، ولنا الاستطاعة أن نمنع الزيادة التى تروى لها بلادكم عن المشى إليكم لأن لنا بلاداً انفتح لها أماكن فوقانية، ينصرف منها الماء إلى أماكن أخرى قبل أن يجىء إليكم ، ولا يمنعنا من ذلك إلا تقوى الله عز وجل . . . »[3] .

خلاصة القول أن نهر النيل « المبارك » كان محور الحياة المصرية فى عصر سلاطين المماليك بشتى نواحيها : الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، والحقيقة أننا لا يمكن أن نفصل بين تأثير النهر على اقتصاديات البلاد ، وبين تأثيره فى عادات الشعب الاجتماعية ، أو أمورهم السياسية ، لأن كلاً من هذه النشاطات تؤثر فى الأخرى بقدر ما ، وبطريقة يصعب معها التحديد القاطع لكل منها .

---

(١) المنوفى : الفيض المديد ص ٤٠ (مخطوط) .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢/ق ١ ص ٢٧٠ .

(٣) العينى : عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ٧٤٥ - ٧٤٦ (مخطوط) .

الباب الثانى

فيضان النيل وعلاقته بالأزمات الاقتصادية والمجاعات والأوبئة

النيل وعلاقته بالمجاعات والأوبئة — عرض لبعض المجاعات — أثر هذه المجاعات فى حياة الناس اليومية — أسباب أخرى للمجاعات — عرض لبعض الأوبئة — موقف الدولة من هذه الأزمات .

الواقع أن هبوط النيل عن حد الوفاء ، أو زيادته عن المنسوب العادى للفيضان ، كان يمثل خطراً حقيقياً على الحياة المصرية آنذاك ، وكارثة قومية يخشى الجميع حدوثها . ذلك أن النيل هو مصدر مياه الرى الوحيد فى مصر تقريباً ، فاذا قصر عن الوفاء فات أوان الزراعة ، وإذا زاد عن حده العادى أغرق البلاد ، وتأخرت الزراعة . وقد أدرك المعاصرون هذه الحقيقة جيداً وأجملها المقريزى فيما أورده على لسان بعض الحكماء « . . . لولا ما جعل الله فى نيل مصر من حكمة الزيادة فى زمن الصيف على التدرج حتى يتكامل رى البلاد ، وهبوط الماء عنها عند بدء الزراعة لفسد إقليم مصر وتعذر سكناه ، لأنه ليس فيه أمطار كافية ، ولا عيون جارية تعم أرضه إلا بعض إقليم الفيوم . . . »[1] .

وحين يقل ماء النهر عن الحد اللازم للزراعة ، يقلق الناس وتنتابهم المخاوف من حدوث المجاعة نتيجة لعدم زراعة المحاصيل الجديدة ، ومن ثم يسارعون لتخزين الغلال التى لديهم ضماناً لقوتهم وقوت عيالهم أثناء الأزمة المتوقعة ، كما يسارع التجار إلى تخزين الغلال طمعاً فى الحصول على أرباح أكثر عن طريق رفع الأسعار ، ونتيجة لهذا يشتد الإقبال على شراء الغلال بينما يقل المطروح من البضائع فى الأسواق

(١) المقريزى : الخطط ج١ ص ٦٢ .

ويشتد تزاحم الناس على الأفران ، وحوانيت بيع الغلال ، ويتبع ذلك بطبيعة الحال تصعيد خطير فى الأسعار ، ويظهر إلى الوجود ما نعرفه اليوم باسم « السوق السوداء » على حد تعبيرنا المعاصر ، وتمتد حمى الأسعار « إلى كل ما يباع ويشترى من مأكول ومشروب وملبوس . . . »[١] ، ويؤدى ذلك بدوره إلى ارتفاع أجور العمال أو « أرباب المهن والصنائع » على حد تعبير مؤرخى ذلك العصر . وكان هبوط مياه النيل وتعطل الزراعة كارثة قومية تقض مضاجع كل الطبقات ، فتضطرب أحوالهم ، ويعظم خوفهم ويشتد بكاؤهم ، وضجيجهم فى الأسواق . . .

وبطبيعة الحال كان عدد الفقراء يتزايد عقب أمثال هذه المجاعات إذ يضطر الناس لبيع ممتلكاتهم لشراء ما يقتاتون به ومن ثم يدخلون فى عداد المعدمين[٢] بينما تزدحم العاصمة بالوافدين من القرى بحثاً عن الطعام الذى يوزع فى القاهرة أحياناً خلال هذه الأزمات[٣] .

وبالإضافة إلى هذه الفوضى الاقتصادية ، كانت مقدرات الدولة السياسية ترتبك من جراء ذلك فى غالب الأحوال ، فتثور الفتن بين أمراء المماليك من ناحية ، بينما يشتد ظلم الولاة وعسفهم من ناحية أخرى[٤] .

وقد عاصر بيلوتى الكريتى — الذى زار مصر فى مطلع القرن الخامس عشر الميلاد إحدى هذه المجاعات وقد مات فيها — على حد قوله — عدد لا يحصى[٥] .

وعلى كل حال فإن الصورة القاتمة لحال البلاد إبان هذه المجاعات والتى أسهب المؤرخون المعاصرون فى وصفها تدلنا بوضوح على ما يمكن أن يصيب الناس إذا هبط النهر عن حد الفيضان . والواقع أن مصر تعرضت لعدة مجاعات لدرجة أن محاولة سردها جميعاً قد توقعنا فى منزلق التكرار الممل ، ومن ثم سنعرض لأهم هذه المجاعات :

---

(١) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٤١ — ٤٣ .

(٢) ابو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢١٨/٢١٩ .

(٣) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٣ — ٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٧/٣٨ .

(٥) Dopp : L'Egypt au com : p. 20.

أول مجاعه أو « غلاء » نسمع عنه في عصر سلاطين المماليك هو الذى حدث سنة ٦٦٢هـ . في عصر السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى[1] إذ توقفت زيادة النيل وتبع ذلك ارتفاع أسعار الغلال ، وقل الخبز في أسواق القاهرة وضواحيها وكاد أن يختفى ، وأكل الناس حشائش الحقول وأوراق اللفت والكرنب ، واستمرت الأسعار في تصاعدها حتى دخلت السنة الجديدة بمحصولاتها ، فأخذت الأسعار في الهبوط وزالت الأزمة .

ولكن هذه الأزمة لم تكن شيئاً يذكر إذا قورنت بالمجاعة التى ألمت بالبلاد فيما بين عامى ٦٩٤ – ٦٩٥هـ أثناء حكم السلطان العادل كتبغا[2] فقد توقفت زيادة النيل وحلت بالبلاد كارثة المجاعة التى أعقبها الوباء الذى أسكن الألوف التراب ، وكانت الصورة قاتمة للغاية إبان هذه المجاعة « . . . فقد كثر الشح ، ووقفت الأحوال واشتد البكاء ، وعظم الضجيج في الأسواق من شدة الغلاء . . . » ، ووصل الأمر بالناس إلى أكل الكلاب والقطط والحمير والبغال « . . . ولم يبق عند أحد شيء . . » وقيل أن الكلب السمين صار يباع بخمسة دراهم ، القطة بثلاثة دراهم[3] . وليت الأمر اقتصر على ذلك فقد تساقط الناس صرعى الجوع في الطرقات ، وجافت الطرق بجثث الموتى فانتشر الوباء الذى قضى على عدد كبير من جمهرة السكان .

وقد عاصر ابن أيبك الدوادارى هذه المجاعة وأورد لنا وصفاً لبعض أحداثها فقال « . . . كان يقول الإنسان الفقير لبابة لله ، لبابة لله ويموت مكانه ، وعادوا يخرجون إلى الكيمان يلتقطون ما يكون مدفوناً بها من حبة قمح أو شعير أو فول أو ما أشبه ذلك ، ولقد نظرت بعينى براً باب البرقية ظاهر القاهرة في الخندق براً السور جماعة كبيرة شبه الوحوش الضارية قد تغيرت عنهم معالم الإنسانية ، وكل جماعة عندهم قدر ينتظرون الميتات التى تخرج وترمى بكيمان البرقية فيأخذونها بالضراب بينهم من

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢١٣ ، العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٢هـ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٦ إلا أن النويرى يذكر أنها حدثت سنة ٦٦١هـ (نهاية الأرب جـ ٢٨ ورقة ٢٧ مخطوط) .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٨١٤ ، إغاثة الأمة ص ٣٢/٣٣ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٨٢ ، ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٨٩ ، ص ٣٩٠ .

(٣) ابن أياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٣/١٣٤ (ط . بولاق) .

قوى على صاحبه فيطبخونها ويأكلونها . . »[١] ويستطرد أبن أيبك فيحدثنا أن الناس صارت تأكل القطط والكلاب ، بل صار الناس يأكلون بعضهم بعضاً ويأكلون الأطفال أيضاً . . .[٢] ورغم تحفظنا فى قبول مثل هذه الأقوال وتناولنا لها فى حذر لما قد يكون فيها من المبالغة إلا أنها فى النهاية تعطينا انطباعاً عن ما يمكن أن تصير اليه الأمور أثناء هذه الأزمات .

وفى سنة ٧٠٩هـ (عصر السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير) حدثت مجاعة عقب توقف مياه النهر عن الزيادة فى موسم الفيضان ، ولكنها كانت أخف وطأة من المجاعة التى حدثت فى عهد السلطان كتبغا ، ولكنها مع ذلك كانت من بين أسباب فشل حكم بيبرس الجاشنكير الذى تشاءم الناس بحكمه الذى لازمه هبوط مياه النهر والغلاء[٣] .

وفى عام ٧٣٦هـ عقب نقص مياه نهر النيل ، عز وجود القمح فى البلاد المصرية ، وبدأ الناس يتزاحمون على الأفران طلباً للخبز ، بل انهم كانوا يقتتلون على أبواب الأفران وينهبون الخبز أثناء دخوله إلى الفرن أو خروجه منه ، مما اضطر الوالى إلى تعيين حراسة على كل حانوت يبيع الخبز .

وجاء الوباء الرهيب الذى عم أنحاء المعمورة ما بين عامى ٧٤٩ — ٧٥٠هـ . ابتداء بالشرق الأقصى وانتهاء بمصر وأوربا ، وقد عرفه المؤرخون العرب باسم « الفناء الكبير » بينما اطلق عليه مؤرخو أوربا اسم « الموت الأسود Black Death » ، وكان طبيعياً أن تصحب هذا الوباء الرهيب مجاعة استمر أثرها قائماً حتى عام ٧٥١هـ[٤] إذ اشتدت الأزمة على الناس بسبب هبوط نهر النيل ، وتناقص عدد الفلاحين إلى درك رهيب بسبب « الوباء الأسود » الذى قضى على عدد كبير منهم مما سبب استمرار الاضطراب الاقتصادى فى مصر فترة غير يسيرة .

وتتوالى سنوات القحط والمجاعات على مصر بكثرة طوال عصر سلاطين المماليك ،

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر جـ٨ ص ٣٨٣ .

(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة ، المقريزى السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٨١٤ .

(٣) المقريزى السلوك جـ ٢ ق ١ ص ٥٥ ، ابن أيبك الدر الفاخر ص ١٦٦ .

(٤) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٩ .

وقد عاصر المؤرخ تقى الدين المقريزى إحداها وهى المجاعة التى ألمت بالبلاد ــ بصورة متقطعة ــ ما بين عامى ٧٩٦هـ و ٨٠٨هـ[١] وقد هاله ما شاهده أثناء هذه المجاعة ولمس بنفسه أسبابها الحقيقية، فأفرد كتاباً ــ لعله الوحيد من نوعه بين مؤلفات ذلك العصر ــ عرض لأهم المجاعات حتى عام ٨٠٨هـ ، وتعرض فيه لأسباب هذه المجاعات والوسائل التى كان السلاطين يلجأون إليها لمواجهة هذه المجاعات ، وقد بدأت هذه المجاعة عام سنة ٧٩٦هـ حين توقف النيل عن الزيادة ولم يوف ، فشرقت أكثر الأراضى ولم تزرع ، وقد أدرك المقريزى حقيقة هامة مؤداها أنه « . . . إذا تأخر جرى النيل بمصر يمتد الغلاء سنين . . . » ، ذلك أن الناس تضطر لأكل المخزون من الغلال القديمة ، والتى تستخدم أحياناً فى زراعة المحاصيل الجديدة فى حالة وفاء النيل، ويأتى عام آخر ليجد أن التقاوى قد استهلكت. وهكذا كان تأخر الفيضان سنة ما يؤدى بالتداعى إلى سلسلة من سنوات القحط والمجاعة ، وبالفعل فقد استمرت هذه المجاعة عدة سنوات بصورة متقطعة ما بين عامى (٧٩٦ ــ ٨٠٨هـ) فارتفعت أسعار كل شىء وبالتالى ارتفعت أجور العمال وأرباب المهن والصنائع . وحين فاض النهر سنة ٨٠٨هـ، لم يجد الناس البذور اللازمة للزراعة لأن الدولة كانت تحتكر تجارة الغلال لتتحكم فى الأسعار ومن ثم « . . . تفاقم الأمر ، وجل الخطب ، وعظم الرزء ، وعمت البلية وطمت . . . » وقد مات أكثر من نصف سكان مصر خلال هذه الأزمة ، ونفقت الماشية والحيوانات ، واستمرت الأزمة ناشبه أظفارها فى البلاد حتى عام ٨٠٨هـ، وقد أرجع المقريزى سبب هذه الحال الرهيبة إلى « . . سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد . . »[٢] .

أثر المجاعات فى حياة الناس اليومية :

من الطبيعى أن يكون لهذه المجاعات أثرها فى أخلاقيات الناس وفى تصرفاتهم اليومية فى أثنائها « ينكشف حال كثير من الناس » ، وتشح النفوس بسبب قلة الطعام فيمنع أكابر الأمراء من يدخل عليهم من الأعيان عند مد أسمطتهم[٣] بينما يتصارع

(١) المرجع السابق ص ٤١ ــ ص ٤٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٤١ ــ ٤٣ .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٧٢٨ .

عامة الناس في سبيل الحصول على القوت، فيتزاحمون على الأفران وحوانيت الخبز والدقيق، ويقتتلون في سبيل الحصول على شيء منه وتتوقف مظاهر حياتهم، ويتعطل البيع والشراء، ويتوجه بعضهم إلى الأفران من منتصف الليل، بينما يتوجه البعض الآخر إلى ساحل النيل في بولاق في محاولة للحصول على بعض القمح « . . . فمنهم من يجد بعض شيء ومنهم من يرجع خايباً . . »[١] وفي أثناء التزاحم على الأفران ينهب الناس الخبز جهراً، بل إن الناس كانوا يختطفون العجين إذا خرج إلى الفرن، ولهذا كان العجين يرسل إلى الفرن في حراسة عدد من الأفراد المسلحين بالعصى « لحمايته من النهابة » ولكن الجوع كان يدفع ببعض الناس إلى إلقاء انفسهم على الخبز دون أن يبالي الواحد منهم بما ينال رأسه وبدنه من الضرب « ... لشدة ما نزل به من الجوع . . . » وفي مثل هذه الأحوال كان المحتسب أو الوالي أو ممثل الدولة يضطر لتعيين الحراسات على أبواب الأفران وحوانيت الخبز، ومعهم العصى الغليظة لدفع الناس عن حوانيت الخبز خوفاً من النهب[٢] .

أما المراكب التي تحمل الغلال من الوجه القبلي أثناء هذه المجاعات فكانت — حين تصل إلى ساحل بولاق — تربط بالمرسى بعيداً عن الشاطىء خوفاً من النهب، ويتوجه من يريد الشراء في القوارب الصغيرة وأثناء تصارع الناس وتزاحمهم لشراء القمح كانت تقع بعض الحوادث من ذلك ما حدث أثناء مجاعة سنة ٨١٨هـ إذ ماتت امرأة ورجل أثناء التزاحم على المركب التي تحمل الغلال في ساحل بولاق، ومحاولة الأمير إينال العلائي المحتسب دفعهم بعيداً عن المركب[٣] .

وكان بعض التجار يلجأ إلى أساليب الغش أثناء هذه الأزمات، فيخلطون الدقيق بغيره من المواد كما حدث أيام الناصر محمد بن قلاون أثناء مجاعة سنة ٧٣٦هـ[٣]: « . . . إذ أصبح الخبز كالكسب من السواد . .[٤] » كما كان البعض الآخر يبيعون لحم الميتات والكلاب للناس كما حدث سنة ٨٥٥هـ حين قبض على جماعة يبيعون

---

(١) العيني : عقد الجمان جـ ٥ ورق ٤١٤ (مخطوط)، ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ورقة ٨٥ (مخطوط).

(٢) المقريزي : إغاثة الأمة ص ٣٣ — ٣٥، ص ٣٩، العيني : عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ٤١٤ .

(٣) ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ورقة ٩٢ .

(٤) المقريزي : إغاثة الأمة ص ٣٩ .

لحوم الدواب الميتة ، ولحوم الكلاب ، فشهروا بالقاهرة[1] .

وبطبيعة الحال كان عدد الفقراء يتزايد بسبب هذه الأزمات ، ومن الطريف أن بعض الناس كان يدعى الحاجة والفقر حتى ينال حظه من الصدقات التى كانت توزع فى أوقات المجاعات ، فقد ذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى أنه أثناء الغلاء الذى ألم بالبلاد سنة ٨٥٥هـ « . . . تمفقر خلائق كثيرة ممن ليس لهم مروءة »[2] .

ومن الطبيعى أن يلجأ التجار إلى استغلال ظروف الأزمة أو المجاعة فيرفعون السعر ، وتزداد أرباحهم زيادة فاحشة ، فقد بلغت أرباح الواحد من التجار أثناء مجاعة ٦٩٤ — ٦٩٥هـ فى عهد السلطان العادل كتبغا ، ما بين مائة ومائتى درهم[3] وحدث سنة ٧٩٨هـ أن ارتفعت الأسعار بسبب قصور النيل ، وقل الخبز حتى اقتتل الناس على أبواب الأفران فى القاهرة وظواهرها ، ثم وصلت مراكب الغلال من الوجه القبلى إلى ساحل بولاق فهبطت الأسعار ولكن التجار الذين أتوا بالقمح أدركوا أنهم سيخسرون إذا باعوا بهذه الأسعار « . . لأنه لم يحصل لهم رأسمالهم وما غرموه فى السفر . . » فامتنعوا عن البيع وواصلوا إبحارهم شمالا تجاه الإسكندرية ، ومن ثم اشتدت الأزمة ثانية ، وقل الخبز ، واضطربت الأحوال[4] وحين توقف النيل عن الزيادة عام ٧٨٩ هـ قبض تجار القمح أيديهم البيع ، وأكثروا من التخزين طمعاً فى زيادة أرباحهم عن طريق رفع الأسعار ، ولكن النيل أوفى فهبطت الأسعار « فخاب ظنهم وما أملوه[5] . . » وكانت أجور العمال فى شتى المهن ترتفع تبعاً لارتفاع الأسعار ، فقد حدث سنة ٨٠٦هـ أن امتدت حمى الأسعار لتشمل كل شىء فارتفعت أجور « . . البناة والفعلة ، وأرباب الصنائع والمهن تزايداً لم يسمع بمثله فيما قرب من هذا الزمان . . »[6] كذلك كانت أرباح العطارين والأطباء تتعاظم أثناء المجاعات والأوبئة نظراً لاشتداد الطلب على الأدوية والأطباء ، ففى أزمة (٦٩٤ — ٦٨٥هـ) بلغت مبيعات أحد العطارين من

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢١٨ — ٢١٩ (ط . كاليفورنيا) .

(٢) المرجع السابق : نفس الجزء والصفحة .

(٣) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٦ .

(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٩ ص ٤٣٤ ص ٤٣٥ (المجلد الأول) .

(٥) المرجع السابق جـ ٩ ص ٩ (المجلد الثانى) .

(٦) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٤١ — ٤٣ .

من الأدوية فى يوم واحد اثنان وثلاثين ألف درهم كذلك بلغ متوسط المكسب اليومى للطبيب حوالى مائة درهم[١] .

ونتيجة لارتفاع الأسعار وانعدام الأقوات فى أثناء الغلاء أو المجاعة ، تتوالى ــ بالتداعى ــ حوادث أخرى تزيد الطين بلة ، إذ ينعدم علف الحيوان بسبب ارتفاع الأسعار ، ومن ثم تنفق الماشية والأبقار وحيوانات الزراعة. ولما كانت هذه الحيوانات هى القوة المحركة المعول عليها فى ذلك العصر لبناء الجسور وسائر أعمال ضبط النهر فإنه نتيجة لموتها تتوقف أعمال صيانة الجسور وأعمال الرى ، بجانب الأعمال الزراعية التى يعتمد فيها على الحيوان ، وبالتالى تتوقف سائر مصالح البلاد ، مثال ذلك ما حدث سنة ٨٥٣هـ إذ مات عدد كبير من الأغنام والأبقار لعدم توافر علف الحيوان ، فارتفعت أسعار هذه الحيوانات وتعطلت أعمال صيانة الجسور فى كثير من النواحى[٢] .

وثمة سبب آخر لحدوث الغلاء أو ازدياد حدته هو هبوط المياه إلى الحد الذى يقلل من حركة الملاحة فى نهر النيل وينتج عن ذلك قلة مجىء مراكب الغلال من الوجه القبلى مما يؤدى بدوره إلى ارتفاع الأسعار وقلة الخبز[٣] .

وكانت سوق النقد تتأثر بحالة الفيضان أيضاً ، وما ينتج عنه من تذبذب فى الأسعار فيكثر غش النقود كما حدث أثناء المجاعة التى حدثت فى عهد السلطان العادل كتبغا[٤] ، كذلك حدث سنة ٨٠٥هـ ــ عقب نقص مياه النيل ــ أن ارتفعت الأسعار جداً ، وارتفع سعر الذهب أيضاً[٥].

أسباب أخرى للأزمات الاقتصادية :

لم يكن « الغلاء » أو المجاعة ، وما يتبعها من مظاهر الفوضى الاقتصادية ناجمة فى كل الأحوال عن هبوط النهر أو عن غرق الأراضى الزراعية إذا زاد النيل زيادة مفرطة ، ولكن هناك أسباباً أخرى منها حالة البلاد السياسية ، وسوء التدبير من جانب

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥/٣٦ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٨٢ (ط . كاليفورنيا) .
(٣) المقريزى : السلوك جـ ٢/ ق٣ ص ٧٢٨ .
(٤) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٧/٣٨ .
(٥) العينى : عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ١٩٨ (مخطوط) .

بعض السلاطين أحياناً ، واضطراب الأمن فى البلاد بسبب الحروب بين طوائف المماليك من جهة ، وفساد العربان من جهة أخرى . . وما إلى ذلك من الأسباب .

فقد كان من بين أسباب تفاقم الأمور أثناء مجاعة . (٦٩٤ — ٦٩٥هـ) أن الأهراء والشون السلطانية[١] كانت خالية من الغلال عندما توقفت زيادة النهر ذلك لأن السلطان الأشرف خليل بن قلاون كان قد فرق الغلال على الأمراء قبل موته ، ولما حلت بالبلاد الأزمة الناتجة عن قصور النيل ، لم يجد وزير الدولة شيئاً مخزوناً ، فاضطر لشراء الغلال للمئونة والعليق ، فارتفعت الأسعار تبعاً لذلك[٢] .

كما أن انعدام الأمن كان يسبب حدوث هذا الاضطراب الاقتصادى فى أحيان كثيرة ، فترتفع الأسعار ويحل الغلاء بالبلاد ، فقد ألمت بمصر شدة عظيمة سنة ٨١٨هـ، وذلك رغم « . . . وجود الغلال وزيادة الماء ، وكثرة الزرع . . . » وكان سبب ذلك « . . كثرة الفتن بضواحى مصر من العربان، وخروج العساكر مرة بعدة مرة، وفى كل مرة يحصل الفساد فى الزرع ويقل الأمن فى الطرقات ، فلا يقع الجلب كما كان . . .[٣] » ونتيجة لعدم ورود الغلال ترتفع الأسعار ويحل « الغلاء » .

علاوة على ذلك فإن النيل لم يكن دائماً طريقاً مأموناً للتجارة ، فان قراصنة النهر كثيراً ما كانوا يهاجمون المركب والسفن النيلية التى تحمل الغلال وغيرها من البضائع إلى القاهرة ، ومن ثم يتخوف التجار فيمتنعون عن جلب تجارتهم إلى القاهرة فترتفع الأسعار ، ويختفى الخبز من الأسواق ، ونسوق مثالا لذلك ما حدث سنة ٨٢٢هـ إذ ارتفعت الأسعار وحل الغلاء بالبلاد ، بسبب « . . . كثرة الحرامية فى النيل فقل الجلب من الوجه القبلى[٥] » .

---

(١) الشون : هى مخازن الأخشاب والغلال والأتبان وما إلى ذلك ، والأهراء يوضع بها ما يخزن من الغلال المتنوعة التى لا تفتح إلا عند الضرورة ولها مركب تعرف باسم . « الدردمونة » قيل أن سعتها خمسة آلاف أردب تحمل إليها الغلال وهى كبيرة جداً ، وكانت هناك مراكب أخرى كثيرة غير هذه المركب تحول الغلال وتفتح الأهراء من حين إلى حين ويصرف منها ما يقتضى صرفه (ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٢ ، ١٢٣) .

(٢) النويرى نهاية الأرب : جـ ٢٩ ورقة ٨٢ (مخطوط) ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٩٧ .

(٣) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ورقة ٨٤ (مخطوط) .

(٤) ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ورقة ١٤٦ (مخطوط) .

وكانت الفتن والمنازعات الداخلية وحروب الشوارع بين طوائف المماليك — لاسيما فى الطور الأخير من ذلك العصر — تسهم بشكل أو بآخر فى خلق هذه الفوضى الاقتصادية ، فإن مجرد الإرجاف بإشاعة موت أحد السلاطين ، أو ركوب الأمراء بالسلاح للاقتتال ، كان يسبب فزعاً شديداً للناس فترتبك أحوالهم وتغلق الأسواق والدكاكين ، وتقفر الطرقات من المارة ، ويلزم الناس بيوتهم ، وتبدو المدينة آنذاك كما لو أن أهلها هجروها فجأة ، من ذلك ما حدث سنة ٦٩٣هـ حين وردت الأخبار بمقتل الأشرف خليل بن قلاون فقد خلت الطرقات تماماً من الناس الذين فروا إلى بيوتهم ، وأخلوا طرقات المدينة لتكون ميداناً للاقتتال المنتظر بين طوائف المماليك ، وبطبيعة الحال اختفى الخبز وقلت الأقوات « . . . وقاس الناس شدة عظيمة . . »(١) ومثال آخر هو ما حدث سنة ٨٠٢هـ ، وبينما الناس فى المساجد والجوامع يستعدون لأداء صلاة الجمعة انطلقت اشاعة مؤداها أن المماليك قد ركبوا بالسلاح لمحاربة بعضهم بعضاً وبسرعة ساد الارتباك كل مظاهر الحياة فى القاهرة وضواحيها وأغلقت أبواب الجوامع ، وفى بعض الجوامع اختصرت الخطبة ، وألغيت تماماً فى بعضها الآخر بل أن الصلاة نفسها ألغيت فى عدد من الجوامع ، وخرج الناس مذعورين خوفاً من النهب وأسرعوا إلى بيوتهم ، ومن ثم أغلقت الأسواق والحوانيت ، وتلى ذلك الغلاء وانعدام الخبز والأسواق(٢) .

وثمة أسباب أخرى غير ما أوردناه كانت تتسبب فى وجود الغلاء والمجاعات ، منها سياسة الاحتكار التى سارت عليها الدولة فى ذلك العصر فقد كانت الدولة تحتكر تجارة الغلال ، ويبيعها الأمراء للناس بما حددوا من الأثمان ، ومن ذلك أيضًا « زكاء الغلال » . (أى توفيرها فى شون السلطان والأمراء على حساب العامة) كما أن سوء تدبير الحكام وإغفالهم مصالح الناس كان من بين الأسباب التى تخلق هذه الأزمات(٣) ، زد على ذلك أن الرشوة انتشرت بين المماليك ومن ثم كان الولاة والحكام يضعون نصب أعينهم أن يعوضوا ما دفعوه من هذه الرشاوى قبل توليهم الوظائف ومن ثم يكثر طمعهم فى أخذ أموال الناس(٤) .

(١) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٧٢ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣ / ق ٣ ص ١٠١٨ — ١٠١٩ .
(٣) المقريزى إغاثة الأمة ص ٤١ — ٤٣ .
(٤) المقريزى : السلوك جـ ٢ / ق ٣ ص ٨٣٣ .

وفى النهاية تجتمع كل هذه العوامل ليضطرب كل شيء ، ونستعير كلام المقريزى فى هذا المقام ليعبر عن الحال التى كانت تسود البلاد إبان هذه الأزمات إذ يقول « . . ونحن الآن فى أول سنة ٨٠٨ هـ والأمر فيها من اختلاف النقود ، وقلة ما يحتاج إليه، وسوء التدبير ، وفساد الرأى فى غاية لامرمى وراءها من عظيم البلاء، وشنيع الأمر . .[١]» .

عرض لأهم الأوبئة والطواعين :

فى كثير من الأحيان يكون الغلاء أو المجاعة سبباً فى انتشار الأوبئة والطواعين أو تكون المجاعة نتيجة لهما فى أحيان أخرى ، وربما يواكب كل منهما الآخر ، ولدينا من الأمثلة على ذلك الكثير ، وسنكتفى هنا بإيراد بعض الأمثلة للتدليل على ذلك .

أول الأوبئة التى ألمت بمصر زمن سلاطين المماليك هو الذى حدث سنة ٦٧٢هـ وقد أهلك عدداً كبيراً من السكان أكثرهم من النساء والأطفال[٢] .

وتأتى مجاعة (٦٩٤ — ٦٩٥ هـ) والوباء الرهيب الذى صحبها كمثال واضح على ما يمكن أن يصيب الناس والبلاد إذا حلت كارثة من هذا النوع[٣] فقد توقف نهر النيل عن الزيادة وأعقب ذلك أن حدثت المجاعة ومات بسببها الآلاف جوعاً ، وانتشرت جثثهم فى كل مكان . ونتج عن ذلك انتشار الوباء ، وصار الناس يتساقطون صرعى الجوع والوباء فى كل مكان وامتلأت الطرقات والحقول وصفحة النهر ، والترع بجثث الموتى تنهشها الكلاب التى كانت تقتل بدورها كى يأكلها الأحياء من الناس وتزايد عدد الموتى حتى بلغ عددهم سبعة عشر ألفاً وخمسمائة فى ذى الحجة سنة ٦٩٤هـ علاوة على الفقراء والغرباء وهم أضعاف ذلك العدد . . . ولم يجد الموتى من يدفنهم « . . . لاشتغال الأصحاء بموتاهم والسقماء بأمراضهم . . » ، ونتج عن هذه المجاعة الرهيبة والوباء المروع الذى صحبها أن خلت القرى من سكانها لدرجة أن القرية التى كان بها مائة شخص لم يتخلف بها « إلا حوالى العشرين » وكان ،

---

(١) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٤٣ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٦١٢ ، تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ١٠ ، العينى : عقد الجمان جـ٢٣ ورقة ٥٨٨ (مخطوط) .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، تاريخ ابن الوردى جـ٢ ص ٢٤١ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٨٠٨ / ٨١٥ ، النويرى : نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٨٢/ ٨٤ (مخطوط) .

أكثرهم يوجد فى الحقول وفى مزارع الفول ميتاً « . . لا يزال يأكل منه إذا وجده حتى يموت ولا يستطيع الحراس ردهم لكثرتهم . . »[١] .

وقد أدت هذه المجاعة والوباء إلى تناقص رهيب فى عدد السكان كما سببت اضطراباً شديداً فى أحوال الدولة ، فقد « ظهر الخلل بالدولة ، لقلة المال وكثرة النفقات . . »[٢] وكانت هذه الأزمة من أهم أسباب فشل حكم العادل كتبغا الذى فسر الناس هذه الأحداث فى ضوء ما اعتقدوه من سوء طالعه وعجزه عن تدبير أمور الدوله .

وشهدت الفترة ما بين عامى ٦٩٥ ، ٦٤٩هـ عدة أوبئة كان سببها فى غالب الأحوال توقف نهر النيل عن الزيادة أثناء موسم الفيضان[٣] .

وجاء عام ٧٤٩ ليشهد ذلك الوباء الرهيب الذى اجتاح الأرض من أقصاها إلى أقصاها مكتسحاً فى طريقه كل بقاع الأرض من مشارق آسيا حتى أوربا ، وقد عرف هذا الوباء باسم « الفناء الكبير » وهو نفسه «الوباء الأسود Black Death » الذى عرفه مؤرخو أوربا . وقد جاء نتيجة انتشار بعض الأمراض الوبائية من الهند والشرق الأقصى إلى مصر وأوربا وقد أفاض المؤرخون فى وصف أهوال هذا « الفناء الكبير »[٤] .

كان من أعراض هذا المرض الوبائى أن يبصق الإنسان دماً ثم يصيح ويموت وبدأ يحل بالبلاد فى خريف عام ٧٤٨هـ ثم اشتدت وطأته مع بداية عام ٧٤٩هـ ، واستمر ينشب مخالبه فى البلاد حوالى عامين وتراوح عدد ضحاياه ما بين عشرة آلاف إلى عشرين ألف نسمة يومياً « . . . وعملت التوابيت والدكك لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة . . . » وتزايد عدد الموتى حتى صاروا يحملون على السلالم وألواح الخشب والأبواب وما إلى ذلك . . وانقطع جماعة لتغسيل الموتى ، كما انقطع جماعة آخرون للصلاة عليهم ، وكان الموتى يدفنون جملة فى حفرة واحدة .

---

(١) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٥ /٣٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣/ ٣٥ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ١ / ق ٣ ، ابن أيبك : الدر الفاخر ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ تاريخ ابن الوردى جـ٢ ص ٢٧٠ ، ٣٤٩ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٢٠٤ ، المقريزى : السلوك جـ٢ ص ٣٢١ ، العينى : عقد الجمان جـ٢٤ حوادث سنة ٧٤٩هـ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ٣ ص ٣٠٣ .

وقد شمل هذا الوباء كل شيء ، فقد امتد أثره إلى « . . حيتان البحر وطير السماء ، ووحش البر . . . . » كذلك فسدت الزراعات بفعل تواجد الدود فيها ، وتسممت الأسماك فى النهر والترع والبحيرات .

وكان طبيعياً آنذاك أن ينشغل الناس بهذا الوباء عن سائر اهتماماتهم وألا يكون بمقدورهم مزاولة أعمالهم اليومية ، فلم تجد الأرض من يزرعها ، كما لم تجد المحصولات من يضمها لكثرة الموتى بين الفلاحين ، وتوقفت أعمال الصيد إذ كان الصيادون يخرجون بمراكبهم للصيد فيموت بعضهم أثناء الرحلة ، ويموت الباقون بعد العودة ، « وعدمت جميع البضائع . . » وركدت الحياة تماماً ، وتعطلت أحوال الناس ولم يجد الولاة والقضاة عملا يشغلهم كذلك لم تجد الفنادق من ينزل بها ، وزهد الناس فى أموالهم وبذلوها للفقراء ، وكان المشهد متكرراً فى كل انحاء البلاد تقريباً .

وامتلأت الطرقات والمساجد والبيوت بجثث الضحايا من الآدميين ، وكان الوباء فتاكاً لدرجة أن الأدوية لم تعد تجدى نفعاً ، وذلك « لسرعة الموت » ، وقد قضى هذا الوباء على كثيرين من أجناد الحلقة وخلت أطباق القلعة من المماليك لموتهم ، وصار الموت يطالع الناس فى كل الطرقات « . . . فلا تجد بيتاً إلا وفيه صيحة ، ولا تمر بشارع إلا وفيه عدة أموات . . . »(١) .

وقد قضى الوباء على حوالى ثلثى جمهرة السكان آنذاك(٢) ، وأقفرت المدن وخلت القاهرة من الناس وهرب السلطان ومن استطاع اللحاق به إلى سرياقوس ، وأصبحت الأملاك تنتقل بطريق الوراثة ما بين أكثر من خمسة أو ستة أشخاص فى اليوم الواحد بسبب سرعة توالى أحداث الموت ، واستولى كثيرون من العامة على إقطاعات أجناد حلقة(٣) .

ونظراً لموت هذا العدد الكبير من الناس انخفضت أسعار الغلال والأقمشة وسائر البضائع بدرجة كبيرة ، ولم تجد الغلال مــن يطحنها(٤) بل أن كتب العلم

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٠ ص ٢٠٥/٢٠٩ .

(٢) العينى : عقد الجمان : جـ١٤ حوادث سنة ٧٤٩هـ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ص ٢٠٥/٢٠٩ .

(٤) Muir (W.) : The Mameluke : p. 94, Lane, Poole : A Hist. p. 319.

رخصت لدرجة أنه كان ينادى عليها بالأحمال « . . . ويباع الحمل منها بأرخص ثمن كذلك هبطت أسعار الذهب والفضة » .

وفى عام ٧٥٠ هـ حاول الأمير منجك اليوسفى حصر الأملاك التى مات أصحابها « . . . فكان يوجد بالحارة الواحدة ما يزيد على عشرين دار خالية لا يعرف أربابها، فختموا على الموجود من الدور والفنادق والخانات حتى يحضر أصحابها[١] . . »

ثم أخذ الوباء يتناقص فى عام ٧٥٠هـ وما لبث أن ارتفع نهائيًّا ، ولكن آثاره ونتائجه ظلت متواجدة بعد ذلك مدة غير قصيرة ، وحين جاء عام ٧٥١هـ توقف نهر النيل عن الزيادة ولم يبلغ حد الوفاء فشرقت أراض كثيرة ، وتوالى قصور النيل سنوات ثلاث اشتدت فيها المحنة ، وزاد من وطأتها ذلك النقص الرهيب فى عدد الفلاحين نتيجة لهذا « الفناء الكبير » ومن ثم ازداد الاضطراب الاقتصادى بسبب عدم زراعة الأراضى .

وبعد هذا الوباء المروع تعرضت البلاد لعدة أوبئة حتى جاء عام ٧٧٦هـ وتوقف زيادة نهر النيل وتبع ذلك الفوضى المألوفة ، وماجت القاهرة بجموع الناس المذعورين توقعاً لحظر المجاعة ، التى جاءت فعلا لتصرع الكثيرين وتبع ذلك انتشار الوباء وانتشرت جثث الضحايا فى كل مكان ، وقد عاصر المؤرخ تقى الدين المقريزى هذه المجاعة ووصفها كما وصفها غيره من المؤرخين[٢] وقد بلغ عدد ضحايا هذه المجاعة والوباء المصاحب لها فى اليوم الواحد نحواً من خمسمائة نسمة من الحشريين وحوالى ألف نسمة من الطرحاء[٣] .

ولعل أشهر طواعين الفترة الأخيرة من عصر سلاطين المماليك هى الطواعين الثلاثة التى شهدها عهد السلطان الأشرف قايتباى ، وكان آخرها سنة ٨٩٧هـ وقد قضى

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٢١ .

(٢) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٤٠ — ٤١ ، السلوك جـ٣ ٪ق١ ص ٢٣٥، ابن حجر أنباء الغمر جـ١ ص ٤٤ ، العينى : عقد الجمان جـ٢٤ ص ١٨٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٣٠٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٦٦ .

(٣) الحشرية : هم الذين توفوا ولم يكن لهم وارث شرعى ، ومن ثم تحول لم أملاكهم إلى ديوان المواريث الحشرية ، أما الطرحاء (ومفردها طريح) وهو الميت المتروك المهمل (النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٦٦) .

أحد هذه الطواعين على حوالى مائتى ألف شخص ، وهلك فيه ثلث المماليك تقريباً بل أن السلطان نفسه حرم من ابنته وزوجته فى يوم واحد وصاحب هذه الطواعين مجاعة رهيبة أمسكت بخناق الناس ، كذلك اجتاح الماشية وباء رهيب قضى على عدد كبير منها ، بينما انفجر صراع بين طائفتين من المماليك ليزيد من حدة البؤس السائد فى البلاد[١] .

ويجدر بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن سلسلة الطواعين والأوبئة والمجاعات التى تعرضت لها مصر فى تلك الفترة التاريخية طويلة ومتتالية ومتقاربة فى بعض الأحيان بحيث يصعب الحديث عن كل منها على حدة ، ومن ثم فقد ألحقت بهذا البحث ثبتاً بهذه الأوبئة والمجاعات ويلاحظ من تتبعها أن غالبيتها العظمى حدث نتيجة لتوقف زيادة نهر النيل إبان موسم الفيضان ، وما يتبع ذلك من تأخر الزراعة فارتفاع الأسعار ثم حدوث المجاعة التى تقتل الكثيرين جوعاً ، وتمتلىء البلاد بهذه الجثث التى تجيف فتنتشر عن طريقها الأمراض الوبائية لتسكن الألوف التراب ، وتؤكد ملامح الصورة القاتمة لحياة جماهير المصريين فى ذلك العصر الزاخر بالأحداث من ناحية وبمظاهر الفخامة والأبهة التى أستأثر بها سلاطين المماليك من ناحية أخرى .

موقف الدولة من هذه الأزمات :

حقيقة لم يكن الناس يملكون إزاء هذه الكوارث سوى الاستسلام انتظاراً لارتفاع الطاعون عنهم تلقائيًّا ، ولم يكن معروفاً لديهم ما نعرفه اليوم من إجراءات وقائية وعلاجية كالعزل والحجر الصحى وإغلاق الأماكن الموبوءة وما إلى ذلك من إجراءات يعرفها العصر الحديث : فلا غرو إن كانت أساليب الدولة لمعالجة الأمور أثناء هذه الكوارث تتفق وروح ذلك العصر بما فيها من قدرية وارتجالية ، ولم تكن هذه الأساليب تختلف كثيراً عن أساليب حكام أوربا فى العصور الوسطى أثناء الأزمات المشابهة[٢] وفى غالب الأحوال كان الناس يفسرون هذه الكوارث من وجهة نظر دينية

---

(١) ابن أياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٧٣ ، ٢٧٥ (ط . بولاق) ؛
Lane - Poole : A Hist . pp : 348 - 349.

(٢) المقريزى : إغاثة الأمة : المقدمة (نشر زيادة والشيال) .

وأخلاقية بحتة فيرجعون أسبابها إلى غضب الله سبحانه وتعالى من جراء فساد الأخلاق وانتشار الفسق والفجور، وسيادة الظلم، ويلجأ الناس إلى الدين يعتصمون بردائه، ويكثر تعبدهم وتواجدهم بالمساجد، وتقوم الحملات من قبل الدولة لمهاجمة أوكار الفساد وأماكن النزهة، ومستودعات الخمور ومخازن الحشيش. وبمجرد انقضاء الأزمة تعود الأمور إلى سيرتها الأولى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت وسائل علاج الأزمة تتخذ شكل الصدقات والإحسان تقرباً إلى الله فيوزع الطعام والخبز على الجائعين والفقراء حتى تنقضى الأزمة. ولا يكون ذلك عن التزام من جانب الدولة بتوفير الرعاية للناس. وفى أحيان أخرى تلجأ الدولة إلى إجراءات اقتصادية معينة كالتسعير وإلزام الطحانين والخبازين بفتح حوانيتهم والبيع فى بعض الأحيان، وتقييد بيع الغلال بحد أقصى منعاً للتخزين فى أحيان أخرى أو استيراد القمح من من الخارج فى بعض الأوقات . . . وغير ذلك من الوسائل التى سنعرض لها تفصيلا ما أمكن ذلك.

كان التصرف الشهير والوسيلة التى يلجأ إليها الناس حين تتوقف زيادة النيل فى ذلك العصر هى الاستسقاء وفى مثل هذه الأحوال يخرج المحتسب ومعاونوه بناء على أمر السلطان لإعلام الناس بأنه تقرر إقامة صلاة الاستسقاء ويخبرهم بمكانها وميعادها، وقد يدعوهم إلى الصيام عدة أيام تقرباً إلى الله حتى يأذن بزيادة النيل ويخرج الناس فى مواكب حاشدة ومعهم القضاة والأمراء والعلماء والفقهاء ومشايخ الخوانق والصوفية وعامة الناس، ويشترك النصارى واليهود فى هذه المواكب فيخرجون إلى الصحراء ومعهم كتبهم المقدسة، وربما خرج السلطان بنفسه معهم[1] . . . وفى الصحراء تبدأ الصلاة وترتفع الأصوات بالدعاء والاستغاثة والتضرع إلى الله تعالى، ويستمر ذلك المشهد عدة ساعات[2] وقد يخرج الناس لصلاة الاستسقاء عدة مرات أملا فى زيادة مياه الفيضان كما حدث عام ٨٥٤هـ[3]، وقد اشترك المقريزى فى إحدى هذه المناسبات، ووصف لنا الموكب الذى خرج لصلاة الاستسقاء

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٠٦ – ٢٠٧، ٣٩٤ – ٣٩٥ (ط. كاليفورنيا).

(٢) المقريزى : السلوك جـ٣/ ق ١ص ٢١٨ / ٢١٩.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ص ٢٠٧/٢٠٨ (كاليفورنيا).

سنة ٧٥٥هـ فقال « . . . خرج الناس بعد ذلك إلى قبة النصر : مشاة بثياب مهنتهم ومعهم أطفالهم ، وكنت ممن خرج يؤمئذ ، وقد نصب هناك منبر ، ونزل الأمير اقتمر عبد الغنى النائب فى عدة من الأمراء فخطب ابن العسقلانى خطيب جامع عمرو بن العاص خطبة الاستسقاء ، وصلى صلاة الاستسقاء وكشف رأسه عند الدعاء وحول رداءه ، فكشف الناس رؤوسهم ، وضجوا بالدعاء إلى الله تعالى ، وارتفعت أصواتهم بالاستغاثة ، وهملت أعينهم بالبكاء ، فكان مشهداً عظيماً ، فلم يسقوا وعادوا خائبين . . . »[1] .

ويتكرر هذا المشهد الذى يصفه المقريزى وغيره من مؤرخى ذلك العصر كثيراً فى عصر سلاطين المماليك كتصرف عاجز حيال الكوارث والنوازل الطبيعية ، وقد أورد لنا أبو المحاسن بن تغرى بردى وصفاً لموكب آخر من هذه المواكب اشترك فيه السلطان المؤيد شيخ[2] وكان يرتدى ملابس بسيطة خالية من الزخارف كما أن فرسه لم يكن عليه غير قماش بسيط دون زخرفة بالذهب والفضة كما هى العادة ، وفى مثل هذه الأحوال كان السلطان يظهر الخشوع والانكسار والتواضع ، ويكثر من الدعاء والتضرع والاستغاثة ، وقد يبدأ الدعاء وصوته يختنق بالبكاء أمام جماهير الناس الذين يرددون الدعاء وراءه وهم يبكون أيضاً .

وتبدأ خطبة الاستسقاء باستغفار الله عشر مرات ، ثم تلى ذلك خطبة العيد وفيها الحمدلات بكمالها ويقول الخطيب « . . . يا أيها الناس استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ، مالكم لا ترجون الله وقاراً . . » ، ويستمر الخطيب فى نهى الناس عن المنكر والفساد ويدعوهم إلى فعل الخير تقرباً وزلفى لله تعالى ، ويحضهم على تقوى الله ثم يحول وجهه إلى القبلة ويتلو بعض الأدعية التى يرددها الناس وراءه ، ومن هذه الأدعية « . . . اللهم خارج الهم ، وكاشف الغم ، مجيب دعوة المضطرين . . اللهم انزل لنا من بركات السماء ، وانبت لنا من بركات الأرض ، اللهم انبت لنا الزرع ، اللهم بالعباد والبلاد من الاحتياج مالا يعلمه إلا أنت ، اللهم ارحم ضعفنا

---

(١) المقريزى السلوك جـ٣/ق١ص ٢١٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٩٤/٣٩٥ (كاليفورنيا) .

وقلة حيلتنا ، اللهم إنا ظلمنا أنفسنا ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فأغفر لنا مغفرة من عندك ، وأرحمنا أنك أنت الغفور الرحيم ، أستغفر الله العظيم لا إله إلا هو وأتوب إليه . . . »(١) .

ولم يكن الناس فى كل الأحيان يخرجون إلى الصحراء لصلاة الاستقساء حين تتوقف زيادة النيل بل أنهم كثيراً ما اجتمعوا بأحد المساجد الكبيرة كجامع عمرو بن العاص ، أو الجامع الأزهر يتوسلون إلى الله ويبتهلون ويستمرون فى قراءة القرآن وتلاوة الأدعية ربما لعدة أيام أملا فى أن يرفع عنهم الغمة(٢) .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذه التجمعات لم تكن تحدث فقط إذا هبط النيل أو قصر الفيضان ، بل كانت تحدث أيضاً إذا زاد النيل زيادة مفرطة وهدد بغرق البلاد وبوار الأرض الزراعية حتى يفوت أوان الزراعة وما يتبع ذلك من حوادث الغلاء والمجاعة كذلك كانت المياه تقطع الجسور وتغرق الدور والبساتين على جانبى النيل ومن ثم يجتمع الناس فى المساجد لقراءة البخارى ، وتلاوة الدعوات والابتهال إلى الله كى يهبط النهر ويزول الخطر ؛ ونسوق مثالا لذلك ما حدث سنة ٧٧٣هـ إذ اجتمع الناس — عقب زيادة مفرطة فى مياه الفيضان — بالجامع الأزهر وجامع عمرو بن العاص للصلاة والدعاء إلى الله حتى يهبط النيل(٢) .

وكثيراً ما كان توقف النيل عن الزيادة وما ينتج عن ذلك من أزمات يفسر فى ضوء فساد أخلاقيات الناس وانشغالهم بأمور اللهو والفساد(٤) فيقوم ممثلو الحكومة كنائب السلطان أو الوالى أو المحتسب أو غيرهم بحملات تأديبية يهاجمون فيها أوكار الفساد وأماكن اللهو ، ومستودعات الخمر والحشيش ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتواترة فى المراجع منها ما حدث سنة ٨٤١ هـ حين ظهر الطاعون بالبلاد المصرية ، وتخوف السلطان برسباى من الطاعون فعقد مجلساً حضره بعض الفقهاء وسألهم إن كان الله

---

(١) السيوطى : كوكب الروضة ص ١٤٧/١٤٩ (مخطوط) .

(٢) ابن حجر أنباء الغمر جـ ١ ص ٣٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٢٠٤ ، السلوك جـ ٣/ق ٣ ص ١١١٣/١١١٤ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ ص ١٩٥ ، ابن حجر : أنباء الغمر جـ ١ ص ٥ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : ص ٦ ص ٧٥٨/٧٦٠ (كاليفورنيا) ، ابن حجر : أنباء الغمر جـ ٢ ورقة ٣٥٠ (مخطوط) ، ابن أياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٧٣/٢٧٤ .

يعاقب الناس بالطاعون بسبب ما يقترفوه من الذنوب فأجابه البعض بأن الزنا إذا تفشى بين الناس ظهر فيهم الطاعون ، وأن النساء يتزين ويمشين فى الطرقات ليلا ونهاراً ، وأشار آخر بأن الواجب يقتضى منع النساء من المشى فى الأسواق ، فنازعه ثالث فى ذلك وطالب بمنع المتبرجات فقط « ... وأما العجائز ومن ليس لها من يقوم بأمرها لا تمنع من تعاطى حاجتها وتباحثوا فى ذلك بحثاً كبيراً ، إلى أن مال السلطان إلى منعهن من الخروج مطلقا ظناً من السلطان أن بمنعهم يرتفع الطاعون . . »[1] .

ولعل هذه المناقشة دليل جيد على المفاهيم التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، والتى فى ضوئها كانت تعالج الأمور أثناء هذه الأزمات ، وكانت مثل هذه الندوات تعقد دائماً للتشاور فيما يجب اتخاذه إزاء الكارثة ، بل إن المناقشات كانت تدور أحياناً حول جواز التضرع والدعاء والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى كى يرفع المجاعة أو الوباء عن الناس والبلاد[2] . وكانت مثل هذه التصرفات العاجزة سمة بارزة ومشتركة فى مواقف الدولة ورجالها الذين يتمسحون برداء الدين إبان الأزمات ، وينتج عن هذه الندوات أو الاجتماعات أن تقوم حملات التأديب بمهاجمة أماكن اللهو والفساد ، ومعاقبة من يؤمها بأشنع أنواع العقاب ، من ذلك ما حدث سنة ٧٨٩هـ — على سبيل المثال — حين لم تبلغ مياه الفيضان حد الوفاء ، وأعقب ذلك الاضطراب الاقتصادى والغلاء المألوف فى مثل هذه الأحوال فبادر الأمير « سيف الدين سودون » نائب السلطنة بالديار المصرية وكبس المتفرجين بالبحر ، وقبض على جماعة منهم ووبخهم ، ثم قام بحملة أخرى هاجم فيها أماكن بيع الخمور واستولى على حوالى ألف جرة خمر كسرها تحت أسوار القلعة ، وبعد ذلك بعدة أيام هاجم أحد أماكن تخزين الحشيش وبيعه واستولى على كميات ضخمة ضبطها هناك وأتلفها بالتراب تحت أسوار القلعة أيضاً[3] كذلك حدث سنة ٩١٠هـ أن أصدر السلطان أوامره لحاجب الحُجّاب ووالى القاهرة أن يهاجموا بيوت الأقباط ويكسروا ما لديهم من جرار الخمر ، ويحرقوا أماكن الحشيش والبوزة « . . . ولا يبقوا فى ذلك ممكناً . . . »[4] .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٧٦٠ (كاليفورنيا) .
(٢) ابن حجر : أنباء الغمر جـ ٢ ص ٢٥٩ .
(٣) تاريخ ابن الفرات جـ ٩ ص ٩ المجلد الثانى .
(٤) ابن أياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٧٦/٧٧ (نشر محمد مصطفى) .

ولكن الصفة التى تميزت بها هذه التصرفات أنها كانت مؤقتة إذ بمجرد انتهاء الأزمة ، وارتفاع الطاعون أو المجاعة ، وهبوط الأسعار يعود الناس إلى سيرتهم الأولى .

وكانت طبيعياً وفقاً لمفاهيم العصر السائدة أن تنتشر إشاعات عن رؤى وأحلام تنسب أسباب هذه الكوارث والأزمات إلى ما يقع من الفساد والظلم ، ففى أثناء أزمة سنة ٩١٦هـ أشيع أن امرأة صالحة رأت فى منامها أن ملكين نزلا من السماء وتوجها إلى النيل الذى كان قد ارتفع إلى حوالى عشرين ذراعاً ، ورفسه أحدهما فهبط بسرعة ثم قال أحدهما للآخر إن الله تعالى كان أمر النيل أن يزيد إلى عشرين ذراعاً ، فلما تزايد الظلم بمصر أذن له بالهبوط وهو فى ثمانية عشر ذراعاً ، فلما انتبهت من المنام هبط النيل فى تلك الليلة « . . دفعة واحدة[١] » .

وثمة تصرف آخر كانت الدولة تلجأ إليه أثناء هذه الأزمات ، وهو أن يجمع السلطان الفقراء والمحتاجين ويوزعهم على الأمراء وكبار رجال الدولة والأعيان والتجار والأثرياء لكل عدد يناسب قدره يلتزم بإطعامهم خلال الأزمة[٢] وقد حدث هذا مراراً طوال عصر سلاطين المماليك . وينبغى أن نلاحظ أن هذا التصرف كان بمثابة إحسان وصدقة للتخفيف من حدة الأزمة على عامة الناس ولم يكن موقفاً رسمياً التزمت به الدولة تجاه رعاياها . فى سنة ٦٦٢هـ أمر السلطان الظاهر بيبرس بإحصاء الفقراء والمساكين فى القاهرة ومصر وجمعهم تحت أسوار قلعة الجبل ، وألزم نفسه بإطعام عدد منهم ، كما ألزم ابنه « السعيد » بإطعام عدد آخر ثم فرق الباقين على الأمراء لكل حسب عدد جنده ، كذلك فرض على كل فرد من التجار والبحرية والمقدمين والأكابر والشهود والمتعممين إطعام عدد معين من الجائعين بشرط أن يستمر الفقير فى تناول راتبه اليومى مدة شهور ثلاثة[٣] ، وقد تكرر نفس الشيء أثناء المجاعة التى ألمت بالبلاد فى عهد السلطان العادل كتبغا (٦٩٤ — ٦٩٥هـ) فقد أمر السلطان — بعد اشتداد المجاعة على الناس — بجمع الفقراء والمحتاجين وإلزام كل

---

(١) ابن أياس : بدائع الزهور جـ٤ ص ١٩٣ ، ١٩٤ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٠٦ (ط . بولاق) .

(٣) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٢هـ ، النويرى نهاية الأرب جـ٢٨ ورقة ٢٧ (مخطوط) ، المقريزى : السلوك جـ١ ق١ ص ٥٠٦ — ٥٠٧ .

من الأمراء والأعيان والتجار بإطعام عدد من معين منهم، فكان من الأمراء من يطعم سهمه من الفقراء لحم البقر مفروداً فى مرقة الخبز يمده لهم سماطاً يأكلون منه جميعاً وكان بعضهم يفرق الكعك على الفقراء الملزم بإطعامهم بينما كان البعض يعطيهم رقاقاً « . . . فخف ما كان بالناس من الفقر . . . » [١] وفى سنة ٧٧٦هـ انتدب الأمير منجك نائب السلطان لتفرقة الفقراء على الأمراء وغيرهم ، وفرقهم أيضاً على الدواوين والتجار وأرباب الأموال ، ونودى فى القاهرة بعدم التصدق على الحرافيش « . . . واى حرفوش شحذ يصلب . . . » [٢] كذلك حدث أن ألمت بالبلاد مجاعة سنة ٨٠٨هـ فنادى النائب فى الفقراء فاجتمعوا بالميدان وفرقهم على الأغنياء من الأمراء والقضاة والأعيان كى يطعموهم « .. . فقل سؤالهم وخف صياحهم وسكنوا . . . » [٣].

وكان الخبز يوزع على الفقراء بالجوامع ، وعلى الصوفية فى الزوايا والخوانق والأربطة ، فقد كان السلطان الظاهر بيبرس يفرق مائة أردب مخبوزة على الفقراء يومياً فى مجاعة سنة ٦٦٢هـ[٤] ، وقد حدث سنة ٧٩٨هـ — أثناء المجاعة — أن كانت عشرون أردباً من الشون السلطانية توزع مخبوزة على الفقراء فى الجوامع[٥] ولكن الصوفية فى الخوانق كانوا يتأثرون بالأزمات الناتجة عن المجاعات ، فقد تعطل طعام ومطبخ خانقاه بيبرس الجاشنكير بسبب هبوط النيل سنة ٧٧٦ هـ واستمر الخبز يصرف للصوفية علاوة على سبعة دراهم شهرياً بدل الطعام زيدت إلى عشرة دراهم فيما بعد ، وحين وقعت مجاعة سنة ٧٩٦هـ أبطل صرف الخبز أيضاً وأغلق مخبز الخانقاه ، وصار الصوفية يأخذون مبلغاً من المال شهرياً بدل الخبز والطعام[٦].

وبجانب هذه التصرفات — التى تغلب عليها الصفة الدينية — كانت الدولة

---

(١) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٥ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ٣/ ق ص ٢٣٠ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ ورقة ١٨٣ (مخطوط) ، ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٢٩
(٣) ابن حجر : أنباء الغمر جـ١ ص ٦٢٣/٦٣١ (مخطوط) .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٢١٣/٢١٤ (ط .
(٥) ابن أياس : بدائع الزهور جـ ٣٠٦/١ (ط . بولاق) .
(٦) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٢١٦ .

تلجأ إلى وسائل أخرى كأن تخرج الغلال من الأهراء السلطانية ، وتوزع على الطحانين كي يطحونها للخبازين ويأخذ كل مخبز مقداراً يناسب معدل استهلاكه تخفيفاً من وقع الأزمة على الناس [١] كذلك كان السلطان يأمر ببيع الغلال من الشون السلطانية « للضعفاء والأرامل » ويضع حداً أقصى للكمية المسموح بشرائها لكل فرد حتى لا يشترى من يخزن « . . . ويقع الحجر على من يخزن . . . »[٢] . ففى سنة ٧٣٦ هـ — على سبيل المثال — ألزم السلطان الناصر محمد بن قلاون الأمراء أن يفتحوا شونهم ويبيعوا الغلال للناس بأسعار حددها لهم « . . ففرج عن الناس... »[٣]

وفى بعض الأحيان كان السلطان يتصدى بنفسه لحل مشكلة اختفاء القمح ، ويتابع الأزمة حتى يحلها عن طريق استيراد القمح من سوريا مثلا أو عن طريق إرسال رجاله لشراء القمح من الوجه القبلى[٤] . كذلك كان الخبازون والطحانون يتعرضون للعقوبات البدنية كالجلد والتسمير فى بعض الأحيان ، فقد كان الوالى أو المحتسب أو النائب أو من فى مكانتهم يتولى مراقبة الأسعار ، ومراقبة عمليات البيع والشراء ، وحين يمتنع الطحانون أو أصحاب حوانيت الخبز عن البيع يعاقبهم بأشنع أنواع العقاب فى بعض الأحيان ، ويوجه إليهم إنذاراً بفتح حوانيتهم « . . .وأن يبيعوا بسعر الله . . . » ويحدد لهم مهلة يحل بعد انقضاء مدتها نهب محلاتهم[٥] وفى سنة ٧٩٨ هـ إشتدت وطأة المجاعة ، وقل الخبز حتى كاد أن يختفى تماماً ، فوقف الناس للسلطان الظاهر برقوق وشكوا إليه انعدام الأقوات ، فأمر بتسمير الطحانين ، وسماسرة الغلال ، وقد عاقب المحتسب أربعة من كبارهم بالجلد علناً [٦] .

وكان تسعير الغلال إحدى الوسائل التى تلجأ إليها الحكومة إبان أوقات المجاعات ، ولكن النتيجة غالباً ما تكون عكس المرجو من هذا الإجراء إذ تتفاقم الأمور ، ويختفى

---

(١) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٣ .

(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٢ هـ ، جـ ٢٥ ورقة ٤١٤ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٠٧ .

(٣) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٤٠ .

(٤) العينى : عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٤١٣/٤١٤ (مخطوط) .

(٥) تاريخ ابن الفرات جـ٩ ص ٣٨٧ .

(٦) المرجع السابق جـ٩ ص ٤٣٤/٤٣٥ .

الخبز ، وتشتد بالناس المجاعة فتضطر الحكومة ثانية إلى إبطال التسعير[١] .

وقد تدفع الأزمة — حين تشتد — ببعض الموظفين إلى الاستقالة لعجزهم عن تدبير الأمور بصفتهم مسئولين عن مراقبة الأسواق والتجارة الداخلية ، ففى حوادث سنة ٨١٨هـ حين اشتدت المجاعة على الناس وقاسوا الكثير من اختفاء الغلال وسائر المواد الغذائية ، اضطر الوالى « التاج الشوبكى » — الذى كان يتولى الحسبة أيضاً آنذاك — إلى أن يستعفى من الحسبة ، وقام نائب الغيبة بتعيين القاضى « شمس الدين محمد ابن يوسف المحلاوى » بدلا منه ، ولكن الأخير لم يلبث أن استعفى هو الآخر بعد أيام قلائل بسبب تزايد الأسعار ، وقلة الخبز واشتداد الزحام على الأفران ، فأعيد التاج الشوبكى إلى الحسبة مرة أخرى[٢] وفى بعض الأحيان كان السلطان أو نائبه يعزل بعض هؤلاء الموظفين إذا نسب إليه سوء التصرف أثناء المجاعة[٣] وكثيراً ما كان المحتسب يلزم بيته ولا يخرج إلى الأماكن العامة خشية غضب الناس الذين ينسبون إليه ما وصلت إليه الحال ، ففى أثناء غلاء سنة ٧٩٨هـ لزم المحتسب بيته خوفاً على نفسه من العامة ثلاثة أيام[٤] كذلك لم يخرج المحتسب مع الناس لصلاة الاستسقاء سنة ٨١٨هـ عملا بنصيحة القاضى « جلال الدين » بالاختفاء خوفاً عليه من الناس « . . . لأن الألسنة كانت قد انطلقت فى حقه أنه هو سبب الغلاء . . . [٥] » .

وكان الضيق الاقتصادى الذى تعانيه الدولة إبان هذه المجاعات يدفع بالسلاطين والولاة والحكام إلى وسائل ظالمة للحصول على المال بقصد موازنة نفقات الدولة وإيراداتها وتتعدد آنذاك المصادرات للولاة والمباشرين ، كما تفرض على التجار أتاوات كبيرة ومغارم فادحة ، وتفرض عليهم الحكومة شراء البضائع التى تطرحها عليهم بأغلى الأثمان[٦] .

كذلك كانت الدولة تلجأ إلى وسائل أخرى للاستيلاء على أموال الناس وممتلكاتهم

---

(١) العينى عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٢ هـ ، المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٢١٤ ، النويرى : نهاية الأرب ج٢٨ . ورقة ٢٧ ، السلوك ج١ ص ٧٠٦ .

(٢) ابن حجر : أنباء الغمر ج٢ ورقة ٨٥ ، العينى : عقد الجمان ج٢٥ ورقة ٤١٣ — ٤١٤ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ج٩ ص ٤٣٥ .

(٤) المرجع السابق : نفس الجزء والصفحة .

(٥) العينى : عقد الجمان ج٢٥ ورقة ٤١٥ .

(٦) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٣ .

فقد تضع العقبات الجسام فى طريق الوريث الذى يطالب بحقه فى ميراث تخلف بموت بعض أقاربه أو أحد والديه ، إذ يكلف بإثبات نسبه أو حقه فى الميراث ، ولا يتم ذلك ، بطبيعة الحال ، إلا بعد عناء طويل ومشقة بالغة وإذا تم ذلك يحال إلى ديوان المواريث حيث يواجه مزيداً من العقبات والتعقيدات ، وكانت الحكومة تلجأ إلى هذه الحيل « . . . حتى تعجز الورثة عن الطلب فتترك المطالبة . . . »[١] ومن ثم تستولى الدولة على هذه الأموال أو الأملاك .

وفى أثناء انتشار المجاعات والطواعين كان بعض سلاطين المماليك يتظاهر بالعدل فيعلن إلغاء الكثير من الضرائب أو « المغارم والمظالم والكلف » — على حد تعبير ذلك العصر — خوفاً من شر الوباء المنتشر ، وبمجرد أن يرتفع الوباء ويقل الخوف منه تعود المكوس والضرائب الفادحة لتفرض على الناس «كما كانت وزيادة[٢]» فقد حدث سنة ٩١٩هـ أن اشتد الطاعون وتزايد انتشاره «وكان السلطان موهوماً على نفسه» وأشيع أنه رأى فى منامه أن النجوم تساقطت من السماء إلى الأرض ، وتلاها القمر ، وقد فسر هذا الحلم بأن النجوم هى عسكر السلطان ، وأنه هو القمر « . . .فعند ذلك أخذ فى إظهار العدل ، وأبطال شيء من المظالم . . .» وأبطل المكوس التى كانت تفرض على البائعين فى الأسواق ، وعلى التجار ، كما ألغى الضريبة التى كانت تؤخذ عند شراء كل أردب من الغلال[٣] كذلك كانت تصرفات بعض سلاطين المماليك تتسم باللين أثناء هذه الأزمات فقد حدث أثناء مجاعة سنة ٧٨٤هـ أن أمر السلطان برقوق الحكام بأن لا يحبس أحد بسبب ديونه ، وأطلق سراح المسجونين[٤] كذلك حدث عام سنة ٩١٩هـ أن أمر السلطان الغورى أرباب الوظائف من الأمراء بمنع الفقهاء من الجلوس على أبوابهم وأمر أيضاً بأن لايشتكى أحد خصمه « إلا من الشرع الشريف[٥]» .

وغالباً ما كان سلاطين المماليك وأمراؤهم والأعيان والأثرياء يهربون إذا حل الوباء

---

(١) المرجع السابق : ص ٣٨/٣٧ .
(٢) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٧٧ .
(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٠٤ .
(٤) ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ١٨١ (مخطوط) .
(٥) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٧٧/٧٦ (نشر محمد مصطفى) .

إلى خارج القاهرة وكانت « سرياقوس » هى المكان الذى يفر إليه السلاطين غالباً[١] كما كان الأعيان من القضاة والتجار والمتعممين يرسلون أولادهم إلى أماكن خارج العاصمة حين تنزل بالبلاد كارثة من هذا النوع ، مثال ذلك ما حدث سنة ٩١٩هـ إذ هرب القاضى الحنفى « عبد البر » أولاده إلى ناحية جبل الطور ، وحذا حذوه جماعة من أمراء المماليك وبعض الأعيان فأرسلوا أولادهم أيضًا إلى الطور « ...خوفاً عليهم من الطعن[٢] » .

وهكذا كان « العامة » وهم السواد الأعظم من جمهرة المصريين فى ذلك العصر هم الغذاء السهل لهذه الكوارث إذ يقتلهم الجوع فيتساقطون فى الطرقات ، وحين تجيف الطرق من جثثهم ينتشر الطاعون أو غيره من الأمراض الوبائية ليشمل الكل ، فيهرب من يستطيع الهرب من الأثرياء بينما ينشب الوباء مخالبه فيمن بقى من الناس سواء الفقراء أم الأغنياء[٣] .

خلاصة القول أن موقف الدولة أثناء هذه الكوارث والأزمات لم يكن يختلف كثيراً عن تصرفات حكومات أوربا العصور الوسطى إبان مثل هذه الأزمات ، وهو موقف يتسم بالعجز الواضح حيال نوازل الطبيعة وكوارثها إذ لم يكن فى مقدور إنسان تلك العصور أن يدفع شرها عن نفسه بالوسائل التى يعرفها عالمنا المعاصر كالحجر الصحى وإلى ذلك من إجراءات وقائية وعلاجية ، كذلك لم توجد سياسة اقتصادية قائمة على أساس من التخطيط تضمن عدم حدوث المجاعة ، وعلى كل حال فإن هذه الكوارث — سواء اتخذت شكل المجاعة أم شكل الوباء أو كليهما معاً — كانت تدفع بالبلاد إلى حال من الفوضى الشاملة والاضطراب الذى يعم كل مظاهر الحياة المصرية ويعم القلق والحزن والبكاء ، وتثور الفتن بسبب نزاعات أمراء المماليك أو ثورات العربان ، وتظل الحال فى اضطراب حتى يبلغ النهر علامة الوفاء ويزرع الناس وتأتى السنة الجديدة لتمنح الهدوء والاستقرار النسبى للبلاد .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٠ ص ٢٤ ، العينى عقد الجمان جـ٢٤ ص ١١٨ ، المقريزى السلوك جـ٢/ ق ٣ ص ٧٧٠ .

(٢) ابن أياس : بدائع الزهور جـ٤ ص ٢٩٦/٢٩٩ .

(٣) ابن أيبك : كنز الدر جـ٨ ص ٣٨٣ .

الباب الثالث

أهمية نهر النيل كطريق للمواصلات والتجارة والحملات العسكرية

نهر النيل والتجارة الداخلية — أهم موانى النهر — الاستعراضات فوق صفحة النهر — أهمية نهر النيل عسكرياً (نقل الحملات ضد الصليبيين والقراصنة والعربان والنوبة) .

من الطبيعى فى ذلك العصر الذى لم يعرف وسائل المواصلات الحديثة كالسيارة أو القطار أو الطائرة أن يكون نهر النيل هو الطريق الرئيسى للانتقال بين أنحاء البلاد لا سيما بين الشمال والجنوب . والواقع أن نهر النيل فى العصور الوسطى كان وسيلة مواصلات طبيعية لا نظير لها ، وقد زاد من أهمية النقل النهرى باعتباره وسيلة المواصلات الرئيسية والأكثر أهمية أن وادى النيل فى شطره المصرى عبارة عن شريط ضيق من الأرض الزراعية — باستثناء منطقة الدلتا — ومن ثم فإن التنقل بين شرق الوادى وغربه لم يكن مشكلة بسبب ضيق الرقعة المأهولة لاسيما فى الصعيد ، بينما قام النهر بدور الرابط الأساسى الوحيد تقريباً بين الشمال والجنوب . وفى منطقة الدلتا لعبت فروع النهر والترع والقنوات الخارجة منه دوراً هاماً فى الربط بين أنحاء البلاد ، ونقل المسافرين والبضائع من مكان لآخر ، وعلى صفحة النهر الخالد كانت تسير السفن النيلية والمراكب تحمل الغلال والماشية وشتى أنواع البضائع مصعدة جنوباً أو منحدرة شمالا . كذلك شهدت مياه نهر النيل خروج السفن الحربية تحمل المقاتلين بأسلحتهم وعتادهم لمحاربة الصليبيين ، وتأمين شواطئ البلاد ومواجهة اعتداءات قراصنة البحر المتوسط من جهة ، ولتوطيد أركان الحكم وإقرار الأمن الداخلى وإخضاع العربان وأهل النوبة من جهة أخرى .

ويبدوا أن حركة الملاحة فى نهر النيل – على عصر سلاطين المماليك – كانت كثيفة بدرجة كبيرة نظراً للنشاط التجارى الضخم الذى قامت به مصر فى تلك الفترة من تاريخها ، لدرجة أن بعض المعاصرين كتب يقول « . . . ليس فى الدنيا نهر تجرى فيه السفن أكثر من نيل مصر . . . »[١] وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على حجم حركة السفن النيلية التى تعكس بدورها أهمية ذلك المجرى المائى العظيم كطريق للمواصلات والتجارة ، ويؤيد ذلك ما ذكره الرحالة الشهير ابن بطوطه من أن « . . . بنهر النيل ستة وثلاثين ألف مركباً للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات . . . »[٢] ، وكانت السفن تبدو كالجبال وهى راسية بشاطئ النيل نظراً لضخامتها ، وكانت حمولة بعض هذه السفن تصل إلى ما يحمله خمسمائة بعير وأكثر[٣] ، وتنوعت أشكال وأحجام هذه السفن والمراكب ، وكانت سفن البضائع كبيرة الحجم تحوى كل منها شونة لحمل الغلال المتنوعة والأحطاب والتبن . وثمة نوع من السفن كان يستخدم فى نقل الثلج المستورد من الشام ، وكانت هذه المراكب تأتى إلى دمياط ثم تنزل فى فرع النيل حتى تصل ساحل النيل فى بولاق حيث تنقل على البغال السلطانية ، ويحمل إلى الشرابخاناه الشريفة[٤] وقد استرعى نظر الشاعر البهاء زهير منظر المراكب والسفن النيلية فقال :

يارعى الله أرض مصر وحيا ... ما مضى لى بمصر من الأوقات
حبذا النيل والمراكب فيه ... مصعدات بنا ومنحدرات
هات زدنى من الحديث عن النيل ... ودعنى من دجلة والفرات[١] .

ومن المعلوم أن مجرى نهر النيل لا يصلح كله للملاحة إذ أن حجارة الجنادل كانت وما تزال تعوق الملاحة . وفى بعض الأماكن كان يمكن للسفن المرور فى أوقات

---

(١) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٣٦ .
(٢) رحلة ابن بطوطه ص ٦٩ .
(٣) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ١٢٥ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٣٦ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ١٤ ص ٣٩٦ .
(٥) ابن أياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٩ (ط . بولاق) .

زيادة النيل فقط[1] وعند المنطقة التى يستحيل سير المراكب فيها كانت البضائع تفرغ من السفن والمراكب لتحمل على ظهور الدواب فكانت البضائع الآتية من السودان تفرغ لتنقل إلى مراكب مصر ويحدث العكس بالنسبة للبضائع الآتية من مصر[2] .

وعلى جانبى الدلتا فوق مياه فرعى النيل كانت السفن تجرى بالآلاف طوال العام محملة بالبضائع والمواد الغذائية المصدرة إلى القاهرة سوق الاستهلاك الرئيسى[3] وفى الصعيد اشتهرت منفلوط بجودة قمحها ومن ثم كان التجار يصعدون فى المراكب إليها لاستجلابه[4] ويبدو أن الصعيد كان هو مورد القمح الرئيسى فى البلاد إذ كثير ما نسمع — ولا سيما فى أوقات الغلاء والمجاعة — أن السلطان قد أرسل بعض الأمراء أو سماسرة الغلال لشراء القمح من الوجه القبلى ، أو أن تجار القمح قدموا من الجنوب لبيعه فى القاهرة أو الإسكندرية[5] وفى الصعيد كان الكتان يزرع بكميات هائلة — إذ كان يستخدم فى صنع ملابس غالبية السكان — ومن الصعيد كان الكتان يخرج فى شكل « بالات » ضخمة بطريق النهر منحدراً إلى القاهرة ، ويواصل رحلته فى المراكب إلى الإسكندرية حيث يصدر إلى بلاد المغرب الإسلامى وبلاد الشام[6] ، كذلك اشتهرت دمياط بالموز الذى كان يحمل منها إلى القاهرة فى المراكب[7] ، وقد ذكر بيلوتى الكريتى أن المراكب المحملة بالبضائع والآتية من الإسكندرية عن طريق فرع رشيد ودمياط كانت تجتمع عند بلدة شطانوف التى كانت تبعد عن القاهرة سبعة أميال ، كما أن السفن المحملة بالبضائع كان تسير فى حركة دائبة طوال العام تحمل البضائع الذاهبة إلى القاهرة وسائر أنحاء البلاد[8] وكانت ضفتا النهر عامرتين بالمدن

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٥٢/٥٣ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٦٢ ، ابن أياس : نشق الأزهار ص ٢٧ (مخطوط) .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ص ٥٣/ ٥٤ .

(٣) رحلة ابن بطوطه ص ٦٩ . Dopp : L'Egypte au Com, p. 23.

(٤) رحلة ابن جبير : ص ٣١ .

(٥) العينى : عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٤١٤ (مخطوط) .

(٦) Dopp : op. Cit., p. 35.

(٧) رحلة ابن بطوطة ص ٥٩ — ٦٠ .

(٨) Dopp : op. Cit., p. 23.

والقرى والأسواق نتيجة لحركة الملاحة النيلية الدائبة فقد ذكر ابن بطوطه أنه ركب النيل « ما بين مداين وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض . . . » ولم يكن المسافر فى النهر يحتاج إلى أن يأخذ معه طعاماً ما أو غيره ، « . . . لأنه مهما أراد النزول للشاطىء سيجد سوقاً يشترى منه ما يريد كما يجد مكاناً يتوضأ ويؤدى الصلاة ، والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر ، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد[١] . . » .

كذلك كانت الأغنام والماشية ترد من الصعيد لتباع فى القاهرة ، ففى سنة ٨٢٦هـ حضر الاستادار من الصعيد ومعه الكثير من الأبقار والأغنام والماشية ، فجمع الجزارين وغيرهم لشرائها ، فاجتمع لذلك عدد كبير من الناس فى مركب ولكنها انقلبت بهم فغرقوا ولم يسلم منهم إلا القليل[٢] .

ولم يكن مجرى النهر الرئيسى هو وحده طريق المواصلات والتجارة بين أنحاء البلاد فى — عصر سلاطين المماليك — بل كانت الترع والقنوات الخارجة من نهر النيل تقوم بنفس الدور أيضاً ، فقد كان من بين منافع خليج الإسكندرية الذى بدأ العمل فيه سنة ٧١٠هـ — كما عددها المؤرخون المعاصرون — أن استخدمته المراكب لحمل الغلال وأصناف المتجر إلى الإسكندرية ، وأدى هذا الخليج دوره فى الملاحة النهرية آنذاك مما يعنى « . . . توفير للكلف وزيادة فى المال . . [٣] » كذلك فإن الخليج الناصرى حين أنشىء سنة ٧٢٥هـ جرت فيه السفن تحمل الغلال وغيرها[٤] كذلك كانت المراكب تسير فى فرع النيل الموصل إلى الفيوم « بحر يوسف » والذى عرف فى ذلك الوقت باسم « خليج المنهى » وكانت تدخل إلى إقليم الفيوم عن طريق الفتحة المسماة آنذاك « باللاهون » فى أيام الفيضان[٥] كما كانت السفن المحملة بأنواع المتاجر تسير فى الخليج الكبير الذى منعت مراكب النزهة من دخوله أيام المقريزى (ق ٩هـ)[٦] .

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٦٦ — ٦٧ .
(٢) ابن حجر : أنباء الغمر جـ٢ ورقة ١٩٩ (مخطوط) .
(٣) المقريزى : الخطط جـ١ ص ١٧٠ .
(٤) المرجع السابق جـ٢ ص ١٤٤ — ١٥٠ .
(٥) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٧٩ .
(٦) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ١٤٢ .

وثمة مثال آخر هو ما حدث سنة ٧٨١هـ حين أصدر الأميران « بيبرس » و« سلار » أمراً لمتولى الصناعة بمصر أن يمنع مراكب النزهة من الدخول إلى الخليج الناصرى ، وركبت سلسلة على مدخله ، فلم تعد تدخله سوى المراكب التى يكون فيها غلة أو متاع ؛ ولكن ذلك الحظر ما لبث أن ارتفع بعد نهاية حكم الظاهر برقوق[1] . وكانت صفحة النيل متنزها للمصريين ولكننا كثيراً ما نقرأ فى المصادر المعاصرة عن أوامر من بعض السلاطين بمنع الناس من ركوب النيل بسبب مظاهر الانحلال والفوضى التى تبدو واضحة فى هذه التجمعات .

ولم تكن البضائع التجارية فقط هى التى تنقل فوق مياه النهر ، فقد استخدمت المراكب فى بعض الأحيان لنقل الرخام وبقايا المعابد الفرعونية لبناء المساجد أو غيرها فى القاهرة كما حدث حين أراد السلطان الناصر محمد استكمال بناء جامعه بالقلعة فقد أحضرت له « أعمدة عظيمة » من الأشمونين أغلب الظن أنها من بقايا أحد المعابد الفرعونية ، وندب لذلك المهندسين والجمارين والعتالين وندب لهم المراكب الكبار الخشنة ، وحملوا مع بداية الفيضان إلى ساحل مصر[2] كذلك أرسل نائب السلطنة بثغر الإسكندرية سنة ٧٨٩هـ هدية كان من بينها سبعة ألواح رخام وصلت إلى ساحل بولاق حيث تم تحويلها إلى القلعة فى ثلاثة أيام[3] .

لكن الملاحة فى نهر النيل كانت تتعرض لبعض الأخطار منها ما هو بفعل الطبيعة ومنها ما هو بفعل البشر ، ولما كانت سفن تلك العصور تعتمد فى سيرها على الرياح بصفة أساسية فإن اشتداد الريح فى بعض الأحيان كان يعرض السفن النيلية لخطر الغرق ومن ثم تتعطل حركة الملاحة مما كان يؤثر بدوره فى حركة التجارة الداخلية ، فقد تسببت الرياح سنة ٨٣١هـ — على سبيل المثال — فى منع المراكب التى تحمل الغلال من الوصول إلى الوجه البحرى مما أدى إلى ارتفاع الأسعار وقلة الخبز فى الأسواق لعدة أيام[4] كذلك تسببت شدة الرياح فى إحدى السنوات فى غرق مائتى سفينة « وهلك

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ١٤٤ — ١٥٠ : ابن حجر : إنباء الغمر جـ ١ ص ١٢٦/١٢٧ (مخطوط) .

(٢) ابن أيبك الدوادار : الدر الفاخر ص ٣٨٢/٣٨٣ .

(٣) تاريخ ابن الفرات : جـ ٩ ص ٢٠/٢١ .

(٤) ابن حجر : أنباء الغمر جـ ٢ ورقة ١٤٠ (مخطوط) .

فيها خلق كثير . . »(١) كما أن انخفاض مياه النهر عن منسوبها العادى — ولا سيما فى أيام الفيضان — كان يؤثر فى حركة الملاحة بالنيل ومن ثم يقل ورود المراكب التى تحمل الغلال من أنحاء البلاد إلى السوق فى القاهرة ، فينتج عن ذلك ارتفاع أسعار المواد الغذائية وحدوث الغلاء الذى قد تصحبه المجاعة(٢)

وبجانب هذه العوامل الطبيعية التى كانت تعوق الملاحة فى نهر النيل وجدت عوامل أخرى ناتجة عن اهتزاز أركان الأمن فى البلاد ، فلم يكن النهر طريقاً مأموناً للتجارة والسفن التى تحمل البضائع فى كل الأحوال ، إذ أن قراصنة النهر كثيراً ما كانوا يهاجمون المراكب والسفن النيلية التى تحمل الغلال وغيرها من البضائع ويستولون على ما بها ، وطبيعى فى ظل ظروف كهذه أن يتخوف التجار من جلب تجارتهم إلى القاهرة ، من ذلك ما حدث سنة ٨٢٢ هـ فقد ارتفعت الأسعار وحل بالناس الغلاء بسبب « . . . كثرة الحرامية فى النيل فقل الجلب من الوجه القبلى . . »(٣) — كذلك حدث سنة ٨٢٥هـ أن قبض على شخص يسمى « ابن وثاب » وكان من قطاع الطرق بالأطفيحية من بلاد الصعيد ، جمع حوله كثيراً من اللصوص والأشقياء وسماهم بأسماء الأمراء فإذا مرت مركب فيها غلة سأل عن صاحبها ، فإذا قيل له الأمير فلان استدعى ذلك الشخص المسمى باسمه فقال له هذه مركبك خذها « . . . واستطالوا على الناس جداً . . . »(٤) وبطبيعة الحال كان النشاط التجارى الداخلى يتأثر بمثل هذه القرصنة التى كانت تتكرر كثيراً لا سيما فى أوقات ضعف الحكومة التى يرأسها سلطان ضعيف أو أثناء احتدام النزاع بين أمراء المماليك على السلطة .

وثمة ضريبة كانت تفرض على المراكب والسفن كانت تسمى « حماية المراكب » تجبى من سائر المراكب التى فى النيل بتقرير معين على كل مركب يقال له « مقرر الحماية » ويجبى من المسافرين فى المراكب سواء كانوا فقراء أم أغنياء ، وقد أبطلها السلطان الناصر محمد بن قلاون فيما أبطله من مكوس(٥) ويبدو أنها أعيدت مرة

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٢٩٦ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ٣ ص ٤٢٨ .
(٣) ابن حجر : أبناء الغمر جـ٢ ورقة ١٤٦ .
(٤) المرجع السابق نفس الجزء ص ١٦٦ .
(٥) المقريزى : السلوك جـ ٢ / ق١ ص ١٥٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٤٧ (ط . دار الكتب) .

أخرى فيما بعد ، إذ يذكر ابن أياس أن السلطان الأشرف قايتباى قد فرض عدة ضرائب على كافة الممتلكات ، ومن بينها المراكب ، وذلك حين احتاج إلى المال سنة ٨٩٦هـ لإعداد إحدى الحملات[١] .

وكانت هناك رقابة من نوع ما على السفن والمراكب التى تسافر فوق صفحة نهر النيل إذ كانت تفرض بعض القيود على أصحاب السفن والمراكب بقصد تأمين سلامة الركاب والسفن ، من ذلك أن أصحاب السفن والمراكب كان عليهم أن يلتزموا بعدم تحميلها فوق العادة « خوف الغرق » ، كذلك لم تكن يسمح للسفن بالسفر أثناء هبوب الرياح ، وفى حالة تواجد ركاب من الجنسين فوق ظهر السفينة أو المركب ، كان يفرض على صاحب المركب أن يفصل بين النساء والرجال بحاجز[٢] .

موانىء النهر :

أما عن أهم موانى نهر النيل — لا سيما ما يرتبط بالتجارة الخارجية — فقد كانت دمياط ، والقاهرة (بولاق — والفسطاط) فى الشمال ، وقوص وأسوان فى الجنوب . وبينما كانت أسوان وقوص مينائين لتجارة النوبة والسودان واليمن والهند والصين ، كانت الإسكندرية ، ودمياط بابى تجارة أوربا فى الشمال[٣] .

وفى الجنوب كان الطريق البرى بين ميناء عيذاب (مركز تجمع الحجاج وسوق التجارة مع الهند وعدن) والنيل تنتهى إلى ثلاث موانىء على نهرالنيل هى أسوان وأدفو وقوص[٤] وقد احتفظت أسوان بمكانة هامة بصفتها ميناء هام على نهر النيل فى كل العصور إذ كانت المركز الطبيعى لتجارة النوبة وأواسط أفريقيا وتجارة الهند لفترة طويلة ، وكان الذهب وريش النعام من أهم الواردات التى ترد عن طريق هذه المدينة وفى نهاية العصر الفاطمى تدهورت مكانتها حين أصبح التجار والحجاج

(١) ابن أياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٦٨ (ط . بولاق) .
(٢) ابن الأخوة : معالم القرية ص ٢٢٢ .
(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩٠ . (ط . ١٩٦٥) .
(٤) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عهد الإخشيديين ص ٢٨١ .
Ency. of Islam : Art Aidhab.

يفضلون قوص عنها[١]. فى القرن الثامن الهجرى أصبحت قوص أكبر مدن الصعيد ونتج هذا التطور عن التغيير الذى حدث فى طريق التجارة العظمى بين الشرق والغرب بسبب الحروب الصليبية ، ونستطيع أن نتعرف على مدى رخائها فى العصور الوسطى إذا عرفنا أنها كانت مستودعاً للبضائع التجارية الواردة من وسط أفريقيا واليمن ، كما كانت مقصد الحجاج القادمين من مصر والمغرب ، وقد زارها الرحالة ابن جبير فى العصر الأيوبى ووصف ثراءها وازدهارها[٢] وبطبيعة الحال فان الأمر فى أيام ابن جبير لم يختلف كثيراً عنه فى أيام المماليك بل أنه فى بداية عصر سلاطين المماليك تطورت قوص لتصبح مديريتها « القوصية » على درجة كبيرة من الأهمية الإدارية والاقتصادية ، وأصبحت أسوان تابعة لها إداريـًّا واقتصاديـًّا[٣] .

وفى الشمال كانت ميناء دمياط همزة الوصل بين نهر النيل والبحر المتوسط وقد وصفها الرحالة ابن بطوطه بقوله « . . . ومدينة دمياط على شاطىء النيل وأهل الدور الموالية يستقون منه الماء بالدلاء ، وكثير من دورها به دركات ينزل فيها إلى النيل . .[٤] » وكانت دمياط على مسافة حوالى فرسخ ونصف من البحر المتوسط[٥] كما كانت هذه المدينة ميناء هامًّا ومركزاً صناعيًّا كبيراً فى العصور الوسطى ، ولكنها تعرضت للغزو عدة مرات بسبب موقعها وفى سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) هدمت تماماً وسويت بالأرض ثم أعيد بناؤها إلى الجنوب من المدينة القديمة لتأمينها من هجوم الأساطيل المعادية[٦] وقد عمد السلطان الظاهر بيبرس إلى تضييق مدخل فرع دمياط من ناحية البحر المتوسط وردمه[٧] حتى لا تدخله السفن الكبار التى تحمل الجنود ولم تعد تدخله سوى مراكب التجارة الصغيرة .

ويبدو أن كل المدن والقرى المصرية التى كانت على شاطىء النيل فى عصر

---

(١) Ency. of Islam : Art Assuan.

(٢) رحلة ابن جبير : ص ٤٠ — ٤٢ (نشر د . حسين نصار) .

(٣) Ency. of Islam : Art Kus.

(٤) رحلة ابن بطوطة : ص ٥٩ — ٦٠ .

(٥) رحلة تافور ص ٦٣ (ترجمة د . حسن حبشى) .

(٦) Ency, of Islam : Art Damiatta

(٧) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٢هـ (مخطوط) .

سلاطين المماليك كان لها موانى – ولو من نوع بدائى بسيط – ترسو عندها السفن النيلية ، وإن كان بعضها من النوع الخشبى البسيط الذى يمكن رفعه عند الحاجة إلى ذلك ، فقد ذكر ابن بطوطة أنه سافر إلى بلدة أشمون الرمان على أحد فروع النيل وكانت لها قنطرة خشبية ترسو المراكب عندها ، فإذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة ، كما أنه وصف مدينة سمنود – التى تقع على مجرى النهر الرئيسى – بأنها كثيرة المراكب[1] مما يدل على أنه كان لها ميناء أو على الأقل مرسى للسفن .

أما القاهرة فكان لها ميناء على ساحل الفسطاط ، وميناء على ساحل بولاق . وفى معرض حديثه عن تجارة التوابل ذكر الرحالة بيلوتى الكريتى – الذى زار مصر فى مطالع القرن الخامس عشر الميلادى – أن المراكب التى تحمل التوابل كانت تفرغ حمولاتها فى ميناء الطور حيث تحملها الجمال إلى ضفة النهر وهناك يجدون عدداً كبيراً من السفن تنتظر التوابل ، وتحملها لتسير فى النهر إلى القاهرة مروراً ببابليون (الفسطاط) وهناك يوجد الجمرك (وهو الجمرك المصرى الثالث على التجارة الواردة من جدة ، فالأول فى جدة والثانى فى الطور) . وفى ميناء الفسطاط يفرغون حمولة السفن من التوابل لتوزع بعد دفع المكوس عليها إلى دمشق والإسكندرية[2] وبسبب قرب الفسطاط من النهر ووجود الميناء بها نشطت حركة التجارة والأسواق فيها « وكانت أرخص أسعاراً وأكثر أرزاقاً من القاهرة[3] » وذلك لأن المراكب التى كانت تجلب البضائع والمتاجر كانت ترسوا بساحلها وهناك يباع ما يصل فى المراكب ولا يحدث ذلك فى القاهرة نفسها لبعدها عن النهر ، وقد ذكر ابن شاهين الظاهرى أن ما بساحلها من المراكب كانت نيفاً عن ألف وثمانمائة مركب كما كانت بالساحل الشون السلطانية التى يوضع بها ما يستعمل من الغلال والأحطاب والأتبان وما أشبه ذلك ، والأهراء التى تخزن بها الغلال ولا تفتح إلا عند الضرورة وكان لها مركب تعرف « بالدردمونة » قيل أنها تحمل خمسة آلاف أردب وتحول الغلال إلى الشون ، وكانت هناك مراكب أخرى

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٦٦ .

(٢) Dopp : L'Egypte au Com : p. 46.

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٦٦ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص ١٠٨ .

غيرها تحول الغلال إلى الشون والأهراء السلطانية[١] كذلك كان سوق الغلال موجوداً بنفس ساحل الفسطاط[٢] وكان القمح وغيره من الغلال يوضع أيام النيل على الساحل من المقس حتى باب القنطرة عرضاً بينما تقف المراكب من جانب المقس حتى منية السيرج طولاً ، ويصير عند باب القنطرة فى أيام الفيضان من المراكب التى تحمل الغلة وغيرها ما يستر الساحل كله[٣] ، ومع ذلك فإن ساحل بولاق كان أكبر من ساحل الفسطاط وأكثر اتساعاً وكان يرد إليه أكثر مما يرد إلى ساحل مصر[٤] وكان لهذا الساحل رصيف كبير تفرغ عليه البضائع كما يتضح من كلام ابن أياس فى حوادث سنة ٩١٦ هـ حين وصلت مراكب تحمل هدايا من عند ابن عثمان (السلطان العثمانى) « ... فوصلت بولاق عند الرصيف وشرعوا يحولون ما فيها إلى القلعة . . »[٥] وفى أوقات الغلاء والمجاعات كانت السفن ترابط بحمولتها من الغلال فى وسط النيل بالمرسى بعيداً عن الشاطىء خوفاً من النهب ويتوجه الناس إليها فى القوارب لشراء ما يريدون[٦] .

وقد وصف لنا الرحالة طافور السفينة النهرية التى نقلته من دمياط إلى القاهرة وصفاً دقيقاً قد يعيننا على تصور شكل سفن الركاب النيلية فى ذلك العصر فهى طويلة وبها عدة حجرات تمتد عبر أنحاء السفينة كما أنها مجهزة بصنادل منبسطة حتى تستطيع السير فى المياه الضحلة ، كما أن هذه المراكب تحمل كثيراً من البضائع ولها قلع مثلث الشكل ، ولكن إذا عاكسها التيار فلا بد أن يجذبها الرجال بحبال من الشاطىء حتى تستطيع مواصلة سيرها رغم أنها تعمل بالأشرعة والمجاديف ، وكان على هذه المركب طبول ثلاثة لإخافة التماسيح وإبعادها عن طريق السفينة إحداها فى المقدمة والثانية بالوسط والثالثة فى مؤخرة السفينة[٧] .

وكانت السفن (النيلية منها والبحرية) تبنى فى « الصناعة » وهو اسم أطلق على

---

(١) خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ ، ٢٨ ، ص ١٢٣ — ١٢٣ .
(٢) رحلة طافور : ص ٦٤ .
(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٢٢ .
(٤) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٢٨/٢٧ .
(٥) ابن أياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٠١ (نشر محمد مصطفى) .
(٦) العينى : عقد الجمان جـ ٢٥/ ص ٤١٤ ، ابن حجر أنباء الغمر جـ ٢ ورقة ٨٥ (مخطوط) .
(٧) رحلة طافور ص ٦٣ .

مكان بناء المراكب ، وقد بنيت بجزيرة الروضة سنة ٥٤هـ ، واستمرت قائمة مكانها حتى نقلها الإخشيد إلى ساحل الفسطاط سنة ٣٢٥هـ وسبب نقل الصناعة من جزيرة الروضة أن ابن طغج الإخشيد تعرض لثورة بعض الثوار بعد دخوله مصر واستطاع هؤلاء قتل قائد اسطوله كما أحرقوا كل ما فى جزيرة الروضة من سفن ثم ومن لم يستطع أن يقوم بعمل حاسم ضدهم ، فنقل دار الصناعة إلى الفسطاط عن اعتقاد بأن « صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشيء » .

ثم أعيدت مرة أخرى إلى الفسطاط سنة ٥١٦هـ(١) ، ولم تكن هذه هى الترسانة الوحيدة لصناعة المراكب والسفن ، فقد وجدت عدة دور لصناعة السفن فى عصر سلاطين المماليك منها واحدة بالإسكندرية وثانية بدمياط وثالثة برشيد(٢) .

وقد حرص سلاطين المماليك على بناء أسطول قوى لحماية الشواطىء والمدن الساحلية المصرية من جهة ، وتأمين السفن التجارية فى البحر المتوسط ضد القراصنة من جهة أخرى ، واشتهر السلطان الظاهر بيبرس من بين السلاطين بعنايته الكبيرة بصناعة السفن واهتم بحفظ « الثغور والشوانى(٣) وحفظ السواحل والموانى . . . » فاهتم بتوفير الأخشاب اللازمة لذلك سواء باستيرادها من الخارج أو من إنتاج البلاد ، وكان يباشر العمل بنفسه(٤) . وقد أدرك الظاهر بيبرس قيمة النهر كطريق للحملات العسكرية ، ومدى أهميته فى الدفاع عن البلاد ، ومن ثم فإنه حين زار ثغر دمياط سنة ٦٦٢ هـ أمر بردم فم بحر الدمياط (فرع دمياط) وتضييقه حتى لا تستطيع سفن العدو الكبيرة دخوله ، ويعد هذا الإجراء بمثابة تحصين للبلاد فى وقت احتدم فيه الصراع(٥) ضد الصليبيين ، كذلك اشتهر عن السلطان الأشرف خليل بن قلاون اهتمامه بالأسطول فرغم قصر مدة

---

(١) السيوطى : كوكب الروضة : ص ٢٣ – ٢٤ (مخطوط) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الإخشديين ص ٢٤٩ – ٢٥٠ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٤٤٧ .

(٣) الشوانى : جمع شينى وهو أكبر أنواع السفن الحربية فى ذلك الوقت وله مائة وأربعون مجدافاً (سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٣٠) .

(٤) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٨هـ ، وحوادث سنة ٦٦٩هـ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨/ ورقة ٦٥ (مخطوط) .

(٥) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٢هـ . (مخطوط) .

حكمه أنشأ عدداً كبيراً من السفن واستعرضها فى احتفال كبير[١].

وثمة تقليد كان سلاطين المماليك يراعونه دائماً ، ذلك أنه بعد الفراغ من بناء السفن كان يقام احتفال كبير فوق مياه النهر ، وتقوم المراكب والسفن باستعراض ومناورات كانت تستهوى جموع المصريين فيحتشدون للفرجة بأعداد غفيرة ، ويستأجرون المراكب فى النيل بأسعار مرتفعة ، وتقوم السفن بدق الكوسات وإطلاق النفوط وكأنها فى حالة اشتباك حقيقى مع سفن العدو ، وأول استعراض نسمع عنه فى ذلك العصر هو الذى حدث سنة ٦٥٩هـ، فبعد أن أتم الظاهر بيبرس بناء عدد كبير من الشوانى والطرائد[٢] وغيرها من المراكب ركب هو والخليفة إلى ساحل الفسطاط حيث « تفرجا على لعب الشوانى . . » بحضور جمع غفير من أبناء الشعب[٣] . وفى سنة ٧٠٢هـ وبعد أن تم بناء عدد من السفن ، ركب فيها المقاتلون بأسلحتهم وعتادهم ونزل السلطان والأمراء من القلعة إلى الساحل ووقف العسكر على البر « . . . واجتمع من العالم مالا يحصيهم إلا الله ... » وامتلأت ضفتا النهر من بولاق حتى جزيرة الروضة بالمتفرجين « . . حتى لم يوجد موضع قدم خال ... » وبلغت أجرة المركب الذى يحمل عشرة أنفس مائة درهم ، « وبرزت الشوانى للعب كأنها فى الحرب » ، وامتدت المناورة فترة من الزمن والناس فى سرور بالغ لما يشاهدون ، ولكن البهجة لم تكتمل إذ انقلب أحد هذه المراكب وغرق قائد الحملة « الأمير جمال الدين آقرش »[٤]. كذلك حدث سنة ٧٦٤هـ استعراض ومناورة لبعض قطع الأسطول على صفحة نهر النيل « . . . وكان من الأيام المشهودة لم ير مثله فى سالف الأعصار . . »[٥] وهكذا فإن هذه الاحتفالات كانت مثار اهتمام كل الناس .

وجدير بنا أن نذكر أن بناء المراكب والسفن كان يتم اعتماداً على العمال المأجورين من أهل هذه الحرفة ولكنهم — فى بعض الأحيان — كانوا يتعرضون للظلم وانقاص

---

(١) المقريزى الخطط جـ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) الطرائد : جمع طريدة ، وهى مركب تستخدم لحمل الخيل والفرسان ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فارساً (انظر سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٣١) .

(٣) المقريزى : السلوك : جـ١ /ق٢ ص ٤٥١ ، النويرى : نهاية الأرب جـ٢٨ ورقة ٢٤ (مخطوط) .

(٤) السيوطى : كوكب الروضة ص ٣٩ (مخطوط) ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٩٢٨ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٥/ ٣٦ (ط . دار الكتب) .

أجورهم ، وإرهاقهم فى العمل[1] وحين يكون الأمر متعلقاً بأمور الجهاد كان المتطوعون يساهمون بجهودهم بجانب الصناع المحترفين فى بناء هذه السفن ، مثال ذلك ما حدث سنة ٧٦٧هـ حين تقدم جماعة من المغاربة رجال البحر لمساعدة صناع المراكب ، وحين تم العمل وتمت عمارة المراكب التى كان عددها مائة قطعة ما بين غربان وطرايد ، جهزت بالرجال والآلات ، وزينت بالأعلام واحتشد جمع غفير من الناس لمشاهدة مناورة بحرية فوق مياه النيل بحضور السلطان والأمراء وكبار رجال الدولة[2] .

واستمرت هذه الاحتفالات والاستعراضات البحرية فوق مياه نهر النيل والاهتمام بأمرها — لا سيما بعد إنجاز العمل فى بناء بعض المراكب والسفن — حتى نهاية عصر سلاطين المماليك ، ففى عام ٩١٤ هـ شهدت مياه النيل مناورة بحرية لعدد من القطع البحرية كانت قد صنعت فى رشيد ، وجيء بها إلى ساحل النيل ، ونزل السلطان من القلعة وبصحبته كبار الأمراء واحتشدت جماهير العامة لمشاهدة ذلك الاستعراض الذى وزعت الخلع فى نهايته على ناظر الخاص ورئيس المراكب وجماعته[3] وفى سنة ٩١٨هـ تمت عمارة مركب كبير للسلطان فأحضر إلى ساحل الفسطاط أمام المقياس وصنعوا له ثمانية مراسى فى النهر وعلقوا فى صواريه القناديل والأعلام وأحضرت النفوط وأنزلت فى خمسين مركباً ، وحضر الأمراء المقدمون بطبلخاناتهم فى مراكب أمام المقياس « . . . وكانت تلك الليلة لم يسمع بمثلها فيما تقدم فإنها كانت من الليالى المشهودة فى القصف والفرجة ، وقد بلغ كرى المركب فى تلك الليلة خمسة دنانير وأكثر والمراكب التى هى راسية على البر انشحنت بالخلايق ، فأخذوا من ذلك على كل رأس أربعة أنصاف فتحصل من ذلك مال كثير للنواتية . . »[4] وهذه الصورة التى يرسمها المؤرخ ابن أياس وغيره من المؤرخين المعاصرين ، تدل بوضوح على ما كانت هذه الاحتفالات والاستعراضات البحرية فى نهر النيل تلقاه من اهتمام المصريين على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم .

ومن ناحية أخرى حملت مياه النيل كثيراً من الحملات التى خرجت من

---

(١) المرجع السابق : جـ٧ ص ٥٤٨ (ط . كاليفورنيا) .
(٢) المقريزى السلوك جـ٣/ق ١ ص ١١٣ ، ص ١٢٩ — ١٣٠ .
(٣) ابن أياس : بدائع الزهور جـ٤ ص ١٤٢ — ١٤٣ (نشر محمد مصطفى) .
(٤) المرجع السابق : جـ٤ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

القاهرة إلى الثغور لمحاربة الصليبيين ، وقراصنة البحر المتوسط ، بل أن بعض المعارك — فى نهاية العصر الأيوبى وبداية عصر السلاطين المماليك — دارت فوق مياه النهر وفروعه ، فقد شهد نهر النيل بعضاً من المعارك التى دارت ضد الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا والتى انتهت بالفشل وأسر لويس التاسع نفسه ، ففى بعض مراحل هذه المعركة أعدت سفن المسلمين كميناً فى فرع النهر قرب المحلة ، بعد أن حملت السفن من القاهرة على ظهور الجمال وهى مفككة وأنزلت بعد تجميعها فى النهر وشحنت بالمقاتلين والأسلحة ، ولما جاءت سفن الصليبيين فاجأتها السفن الإسلامية وجاءت بعض السفن الأخرى من جهة المنصورة ودارت معركة أسفرت عن نصر حاسم لمراكب المسلمين التى استولت على مراكب الصليبيين بما فيها من العتاد والأسلحة والمؤن وأسر نحو ألف من رجالها وأرسلوا إلى معسكر المسلمين على الجمال ، وقد صادف وقت حدوث هذه المعركة أن كان الفيضان والطرق البرية مقطوعة من كثرة المياه ومن ثم انقطع خط تموين الفرنج من دمياط « . . . ووقع الغلاء عندهم ، وصاروا محصورين ولا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب . . »[1] وثمة معركة نهرية أخرى خلال هذه الحملة الصليبية انتهت بنصر المسلمين واستيلائهم على اثنتين وثلاثين مركباً للصليبيين من بينها تسع شوانى (وهى أكبر أنواع المراكب الحربية) ، « فاشتد الغلاء عند الفرنج وصاروا يراسلون السلطان لطلب الهدنة . . »[2] .

وتوالت الحملات لمحاربة الصليبيين وتأديب قراصنة البحر المتوسط الذين دأبوا على مهاجمة سفن المسلمين وكانت المراكب تخرج من ساحل القاهرة لتسير فى النهر وفروعه إلى دمياط والإسكندرية أو رشيد حيث تخرج بعد ذلك إلى البحر المتوسط ، وعند خروج هذه الحملات كان الناس يحتشدون على الشاطىء للفرجة وترتفع الأصوات بالدعاء بالنصر والعود الظافر بين دقات الطبول والزمور والكوسات التى عادة ما كانت تصحب مظاهر الاحتفال بخروج إحدى التجريدات ، ونسوق مثالا على ذلك ما حدث سنة ٨٢٨هـ — ٨٢٩هـ فى عهد السلطان الأشرف برسباى إذ شهد شاطىء النيل احتفالا يجل عن الوصف بخروج الحملات ضد جزيرة رودس فقد تجمع الناس فى ذلك « اليوم

(١) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧هـ (مخطوط) ، المقريزى : السلوك جـ ١/ق ٢ص ٣٥٣ / ٣٥٤ ، الخطط جـ ١ ص ٢٢٠/٢٢١ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١/ق٢ ص ٣٥٤ .

المشهود » للفرجة على المسافرين برسم الغزو من الأقطار والنواحى « . . . حتى صار ساحل بولاق لا يستطيع الرجل أن يمر فيه لحاجته إلا بعد تعب ومشقة زائدة . . . » وعبر الناس النيل إلى البر الغربى حيث نصبوا الخيام والأخصاص ، وامتلأت صفحة النيل بمراكب المتفرجين ... « وأما بيوت بولاق فلم يقدر على بيت منها إلا من يكون له جاه عريض أو مال كبير . . » وبعد نهاية الاحتفال سارت السفن فى النيل إلى دمياط والإسكندرية استعداداً للسفر إلى رودس ، بين فرح الناس وسرورهم وابتهالهم إلى الله سبحانه وتعالى بنصر المسلمين وعودتهم بالسلامة والغنيمة[1] .

وحين تتعرض سواحل الشمال لعبث الفرنج واعتداءاتهم ، أو حين يعترضون سبيل المراكب التجارية فى البحر المتوسط ويستولون عليها كانت الحملات تخرج عبر نهر النيل وفروعه من القاهرة لمواجهة مثل هذه الاعتداءات فقد حدث — مثلا — سنة ٨٤٣هـ أن هاجمت مراكب الفرنج مدينة رشيد واستولت على بعض الأبقار وغيرها فخرجت من القاهرة حملة بقيادة الأمير « اسنبغا الطيارى » ، والأمير « شاربك الحكمى » وهما من أمراء الألوف بالديار المصرية[2] وفى سنة ٨٤٤هـ أمر السلطان الظاهر جقمق بخروج حملة للقضاء على « عبث الفرنج فى البحر واخذها مراكب التجار . . » وقد خرجت هذه الحملة المكونة من خمسة عشر غراباً فيها المقاتلون من المماليك السلطانية والمتطوعون من عامة الناس من ساحل بولاق فى احتفال هائل حضرته جموع المصريين التى دأبت على مشاهدة مثل هذه الاحتفالات وتكررت الصورة ولنفس السبب سنة ٨٤٦هـ ، وفشلت الحملة الأخيرة وإن كان خروجها من ساحل بولاق قد تم بين مظاهر الاحتفال المعهودة فى مثل هذه المناسبات[3] .

وعند عودة الأساطيل من الغزو إلى ساحل القاهرة فى بولاق أو الفسطاط ، كان الناس يجتمعون للاحتفال بقدومها بنفس الحماسة الذى كانوا يودعون بها الحملات المتوجهة للغزو ؛ ففى سنة ٨٢٩هـ بدأ دخول الغزاة (الذين كانوا قد توجهوا لغزو قبرس

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ٦ ص ٥٨٨ — ٥٨٩ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ (ط. كاليفورنيا) .

(٢) المرجع السابق : جـ٧ ص ١١٢ (ط — كاليفورنيا) .

(٣) العينى : عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ٧١٨ (مخطوط) ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ ٧ ص ١١٢ ، ١٢٢ (ط . كاليفورنيا) .

فى عهد السلطان الأشرف برسباى) . إلى ساحل بولاق ، ووافق ذلك يوم وفاء النيل وعيد الفطر « . . فتضاعفت مسرات الناس من كل جهة . . »[١] كما حدث سنة ٧٨٧ هـ أن قدمت بعض سفن الأسطول المصرى إلى ساحل بولاق وهى تحمل الأسرى والغنائم فاجتمع الناس لمشاهدتها والاحتفال بها[٢] .

ومهما يكن من أمر فقد تكررت مشاهد خروج التجريدات بكثرة طوال عصر سلاطين المماليك ، ويضيق بنا المقام عن تتبعها ، إلا أننا يجب أن نشير إلى أن النهر العظيم قد شهد المعارك الأخيرة فى حياة دولة المماليك كما سبق أن شهد المعارك الأولى ضد الصليبيين ، ففى سنة ٩٢١هـ بلغ السلطان أن العثمانيين ينوون مهاجمة ثغرى الإسكندرية ودمياط ، فنزل السلطان إلى الساحل وعدى إلى بر امبابة حتى يتكامل خروج العسكر فى السفن لا سيما أن النيل كان قد زاد إلى حوالى عشرين ذراعاً وغمرت المياه الأراضى وتقطعت الطرق ، ولم تكن هناك وسيلة لنقل الجنود سوى السفن ولكن الجنود « قاسوا كثيراً فى المراكب بسبب الحيول .. »[٣] كذلك كانت السفن النيلية هى الوسيلة الرئيسية لنقل قوات العثمانيين خلال المعارك التى خاضوها ضد فلول المماليك بقيادة السلطان طومانباى[٤] وفى بعض مراحل الصراع دارت معركة قرب اطفيح بين مراكب طومانباى ، ومراكب العثمانيين بقيادة جانم السيفى كاشف الفيوم الذى كان قد انحاز إلى جانب العثمانيين[٥] وفى معركة أخرى تمكن الأمير « شاربك الأعور » من الاستيلاء على مراكب العثمانيين كلها فيما عدا مركبين استطاعا الفرار[٦] مما كان له أبلغ الأثر فى إلحاق الهزيمة بالعثمانيين فى هذه المعركة الجانبية .

وكما شهدت صفحة النيل المعارك والحملات لتأمين البلاد ضد الأخطار الخارجية فقد شهدت أيضًا بعض معارك الصراع الداخلى فيما بين أمراء المماليك ، والأمثلة كثيرة نسوق منها ما حدث سنة ٧٦٤هـ فى عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين ، فقد

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ٦١٢ (ط . كاليفورنيا) .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٣/ق ٢ ص ٥٣٣ .
(٣) ابن أياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٤٧٥ (نشر محمد مصطفى) .
(٤) ابن زنبل : آخرة المماليك ص ٦٣ — ٦٧ .
(٥) المرجع السابق : ص ٦٣ — ٦٤ .
(٦) المرجع السابق : ص ٦٨ .

اتفق جماعة من مماليك الأمير يلبغا على قتله لكثرة ظلمه وعسفه ، ولكنه أحس بالمؤامرة فهرب وعدى النيل ، ومنع سائر المراكب من العبور خلفه ، فأخذ ولاة الجيزة فى جمع السفن والمراكب التى كان قد بناها للغزو من شاطىء النيل فجمعوا منها عدداً كبيراً وساروا بها جميعاً إلى بولاق وفيها آلات الحرب لقتال يلبغا ، وفى أثناء سلطنة السلطان الأشرف شعبان ثار عليه الأمير يلبغا وانضم إليه الأمير آنوك بن أخى السلطان واستمرت المعارك بين السلطان ويلبغا عبر نهر النيل عدة أيام ، بينما تعطلت أسواق القاهرة « وليس للناس شغل سوى التفرج فى شاطىء النيل على المقاتلين من السلطانية واليلبغاوية .. » ، وفى هذه الأثناء تعصب العامة للسلطان الأشرف شعبان وسبحوا إليه ، وانتهى الأمر بفرار يلبغا إلى القاهرة حيث قتله مماليكه[١] كذلك حدثت معركة فى نهر النيل بين بعض المماليك المتآمرين على الفتك بالسلطان الناصر فرج بن برقوق من ناحية والأمير طوغان ومماليكه من ناحية أخرى انتهت بمقتل الأمير جانم زعيم المؤامرة[٢] وكان الأمراء الذين يقبض عليهم يرسلون إلى السجون فى الإسكندرية وقوص وغيرهما فى المراكب النيلية ؛ من ذلك ما حدث سنة ٧٤٢هـ حين وصل الأمراء الذين كان الأمير قوصون قد حبسهم فى الإسكندرية إلى القاهرة ، وتوجهت نفس الحراقة التى[٣] جاءت بهم تحمل قوصون نفسه ليسجن فى الإسكندرية فى عهد السلطان شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاون[٤] كذلك حدث سنة ٧٩١هـ أن حمل الأمراء المسجونون فى الحراريق إلى سجن الإسكندرية فى سلطنة المنصور حاجى[٥] وحدث سنة ٧٨٤ هـ أن أخرج السلطان برقوق ثلاثة وأربعين مملوكاً من المحبوسين وأمر بتخشيبهم وتقييدهم بالحديد ، وأنزلوا فى المراكب بساحل مصر القديمة وتوجهوا إلى قوص[٦] .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ ١١ ص ٣٦ / ٤٠ (ط . دار الكتب) السلوك جـ ٣ /ق ١ ص ١٣٣/١٣٦ ، السيوطى : كوكب الروضة : ص ٤٠ – ٤١ (مخطوط) .

(٢) العينى : عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٣٣٤ (مخطوط) .

(٣) الحراقة ، وجمعها حراريق : نوع من السفن الحربية استخدمت لحمل الأسلحة النارية وفيها مواضع الرمى بالنيران ، وقد استخدم نوع منها أثناء الاستعراضات التى شهدها نهر النيل ، ويتضح من كلام المقريزى أنها استخدمت أحياناً لنقل المسافرين (انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٠٨) وانظر كذلك . Quatremére : Vol. I p. 142.

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٢/ق ٢ ، ص ٥٩٥ .

(٥) المرجع السابق جـ ٣ق/٢ ص ٦٢٧ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢١٣ .

كان العربان فى مصر فى عصر سلاطين المماليك مصدراً لإثارة الفتن والمصاعب فى وجه الحكومة باستمرار كما أن الفلاحين فى قراهم ، وسكان المدن لم يسلموا من أذاهم ، وكثيراً ما خرجت الحملات ضدهم ، ولكن ذلك لم يقض على اعتداءاتهم على القرى والمدن واعتراضهم طريق قوافل الحج ، وظلوا مصدراً لاضطراب الأمن فى البلاد طوال ذلك العصر . وليس هذا مجال تتبع مجهودات سلاطين المماليك ضد العربان وفسادهم ومن ثم سنكتفى بذكر بعض الحملات والتجريدات التى كان نهر النيل طريقها ؛ ففى سنة ٧٠١هـ كثر فساد العربان وقطعهم الطريق واستهتارهم بالحكومة لدرجة أنهم فرضوا الأتاوات على سكان أسيوط ومنفلوط من التجار وغيرهم ومنعوا الخراج ، وتسموا بأسماء أمراء المماليك وجعلوا لهم كبيرين أحدهما سموه « سلار » ، والآخر « بيبرس » وأطلقوا سراح المسجونين فتجهزت حملة لتأديبهم قسمت إلى أربعة أقسام أحدها يتوجه فى النيل[1] وقد تظاهر الأميران سلار وبيبرس بأن هذه الحملة متوجهة إلى الشام ، وتطرف المماليك فى الانتقام حتى لم يعد بالإمكان حصر عدد القتلى واقفرت البلاد إلا من النسوة والأطفال[2] وتكرر الأمر سنة ٧١٣هـ وفى هذه المرة سافر السلطان بنفسه لتأديب العربان ، وزيادة فى الحيطة أشاع أنه مسافر للصعيد وقبض على كثير من العربان وأرسلهم مقيدين فى المراكب إلى القاهرة[3] وفى سنة ٧٥٣ هـ توجهت حملة أخرى إلى الصعيد فى البر وعلى مياه النهر بقيادة الأمير « أرنان » ، والأمير « قطلو بغا الذهبى » والأمير « علم دار» « .. بسبب نفاق العربان ، وقطع الطريق على المسافرين ، وتشليح الأجناد . .[4] » .

وهكذا لعب النيل دوره كوسيلة لنقل الحملات التأديبية ضد العربان ، فقد كانت السفن تحمل الجنود وسلاحهم إلى الصعيد باعتبارها الوسيلة الأسرع والأفضل لا سيما فى أوقات الفيضان حيث يتعسر السير فى الطرق البرية ، وكانت هذه السفن تعود بالأسرى والغنائم بعد هزيمة العربان .

كذلك استلزمت سلسلة الحملات التى قام بها سلاطين المماليك ضد النوبة نقل

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٥٠ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق/٣ ص ٩٢٠ ـ
(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ق/٣ ص ٩٢١ .
(٣) المرجع السابق جـ ٢ ق/١ ص ١٢٩ .
(٤) المرجع السابق جـ ٢ ق/٣ ص ٧٧٨ .

الجنود والمؤن والأسلحة الخاصة بهذه الحملات فى المراكب النيلية ، فى سنة ٦٧٤ﻫ كثر تعدى « داود » متملك النوبة الذى هاجم عيذاب وأسوان وحرق الدور وخرب المدينتين وارتكب أفعالا شنيعة ، وحاول الأمير « علاء الدين الخازندار » والى قوص أن يلحق يه فى أسوان ولكنه استطاع الفرار ، فأرسلت حملة برية ونهرية من القاهرة إلى النوبة حيث دار القتال فى النهر وعلى شاطئيه ، وانتهى بنصر جنود المماليك على ملك النوبة[١] ، وفى سنة ٦٨٨ﻫ جرد السلطان بيبرس حملة أخرى إلى النوبة بصحبة ابن أخت متملك النوبة المدعو « شكنده » وكان قائد الحملة الأمير « عز الدين الأفرم » والأمير « شمس الدين آقسنقر الفرقانى » وصحبت الحملة خمسمائة مركب « . ما بين حراريق ومراكب كبار وصغار تحمل الزاد والسلاح والأثقال » وحين وصلت الحملة إلى ثغر أسوان واصلت سيرها حتى وصلت جزائر ميكائيل عند الجنادل وهرب الملك داود إلى إحدى الجزر ، ولم تستطيع المراكب مواصلة السير « .. لتوعر النيل بالأحجار . . . » فى هذه المنطقة ، وانتهى الأمر بتنصيب شكنده ملكاً وخضوع النوبة لنفوذ السلطان الظاهر بيبرس تماماً[٢] . وتوجهت عدة حملات بعد ذلك لمحاربة النوبة بعد أن شذت عن الطاعة فى عهد ملكها سمامون أهمها الحملة التى أرسلها السلطان المنصور قلاون ، وانتهت بهروب سمامون بمراكبه حين واجه الأسطول المملوكى ، ولكن الأمراء والأساقفة والقسوس الذين كانوا معه قدموا يطلبون الأمان من قائد الحملة المماليكية[٣] واحتفل المماليك بانتصارهم بأن استعرضوا السفن والمراكب فى النيل أمام دنقله بعد أن زينوها بالأعلام وجهزوها بالنفوط[٤] . وفى سنة ٧٦٧ ﻫ كثر فساد أولا الكنز[٥] وقطعهم الطريق على التجار وأخذهم الأموال واستولوا على ثغر أسوان ، واشتدت شوكتهم ومن ثم توجهت حملة بقيادة الأمير « آقتمر عبد الغنى » لردعهم وسارت المراكب فى النيل بحذاء الحملة البرية وعندما وصلت إلى أسوان نقلت الأسلحة التى كانت فى المراكب

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ورقة ١٠٨ — ١٠٩ (مخطوط) ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ص ٤٥ — ٤٧ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٨ ورقة ١٠٩ — المقريزى : السلوك جـ١ ق/ ٣ ص ٦٢٦ .

(٣) المرجع السابق جـ٢٩ ورقة ١١ — ١٢ (مخطوط) .

(٤) المقريزى السلوك جـ١ ق/٣ ص ٧٤٩ — ٧٥٢ .

(٥) بالمرجع السابق جـ٣ ق/١ ص ١٠٩ حاشية رقم (١) أن الكنوز قبيلة تنتسب إلى كنز الدولة دخلت النوبة وحكمتها .

إلى البر . ويتضح من أخبار هذه الحملة أن الجنادل كانت تمثل عقبة حقيقية فى وجه الملاحـــة ، ومن ثم كان يتحتم تفريغ المراكب من حمولتها حتى يمكن تسييرها عبر منطقة الجنادل ثم يعاد شحنها مرة أخرى حين تسمح مياه النهر بالملاحة(١) .

خلاصة القول إن نهر النيل كان المحور الرئيسى للحياه العامة فى مصر فهو شريان التجارة الداخلية الرئيسى فى ذلك العصر ، كما كان طريقاً للمواصلات تسير فيه المراكب بالمسافرين والبضائع عبر أنحاء البلاد واستخدم أيضاً أثناء الحروب سواء الخارجية منها أو الداخلية كوسيلة رئيسية وطريق أساسى لنقل الجنود وأسلحتهم ومعداتهم ما بين أجزاء البلاد . ويجدر بنا أن نلاحظ أيضاً أنه أثناء الفيضان العالى وحين تغمر المياه وجه الأرض لم تكن هناك وسيلة للانتقال بين القرى والمدن سوى المراكب والقوارب ، وقد ساهمت طبيعة تكوين البلاد فى إكساب النهر هذه الأهمية ، فالمنطقة المسكونة إنما هى تكوين فيضى من ترسيبات طمى النيل كوّن شريطاً زراعيًّا يمتد من الجنوب إلى الشمال على ضفتى النهر ، كما هو الحال فى الدلتا التى تقترب فيها المنطقة الزراعية المأهوله بالسكان من النهر وفروعـــه ، ومن ثم كان طبيعيًّا فى ذلك العصر أن تكون المراكب والسفن النيلية والقوارب هى الوسيلة الأسهل والأسرع والأكثر أمناً للانتقال بين أنحاء البلاد .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٣ ق/ ١ ص ١٠٩ / ١١١ .

الباب الرابع

نهر النيل فى كتابات المعاصرين

المؤرخون والجغرافيون (القصص الدينى — الأساطير — النيل وصفاته) — الشعراء والأدباء — الرحالة الشرقيون والغربيون » .

إذا كانت مشكلة معظم الباحثين فى بعض الموضوعات هى قلة المصادر فإن الأمر يختلف بالنسبة لمن يحاول أن يبحث شيئاً يتعلق بنهر النيل ؛ ذلك أن النهر الخالد كان محط اهتمام كل كتاب ومؤلفى مختلف العصور وخاصة عصر سلاطين المماليك الذى حفل بالنشاط العلمى . فقد كانت مصر ، فى ذلك العصر ، محوراً لنشاط علمى كبير إذ قصدها العلماء وطلاب العلم من شتى أقطار العالم الإسلامى ، وخير دليل على ذلك النشاط العلمى ما خلفه علماء وأدباء ذلك العصر من تراث ضخم من موسوعات ، وحوليات تاريخية ومؤلفات شتى فى مختلف العلوم والفنون[1] . ويرجع هذا النشاط العلمى الضخم فى مصر آنذاك إلى الكوارث التى ألمت بالبلاد الإسلامية فى القرن السابع الهجرى ، فقد سقطت الخلافة العباسية فى بغداد على أيدى المغول الذين هددوا الشام أيضاً ، كما انقض الصليبيون على مسلمى الأندلس يستولون على ممتلكاتهم وهكذا فر كثير من علماء تلك البلاد وأدبائها وشعرائها إلى مصر التى كانت تتمتع باستقلال وقوة ومنعة نسبية ، فجعلوها ميداناً لنشاطهم العلمى وشمروا عن ساعد الجد فى البحث والدراسة وكان طبيعياً أن يلقى النهر الخالد الكثير من اهتمامهم ، ويصبح موضوعاً هاماً لبحثهم ومجالا لخيالاتهم ومسرحاً لتفكيرهم ومراحاً لحدسهم وتخمينهم ولا غرو فالنهر العظيم هو قوام الحياة المصرية ، وعليه مدارها .

وبلغ من اهتمام علماء عصر سلاطين المماليك بنهر النيل أن أفرد البعض كتباً

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٤١ .

تبحث فى نهر النيل ، وتتحدث عن كل ما يتعلق بالنهر من أمور ، ومن هذه المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر كتاب « الفيض المديد فى النيـــل السعيد » للمنوفى ، وكتاب « نيل الرائد فى النيل الزائد » للحجازى ، وكتاب « الكلام على النيل » لعبد الرحمن السيوطى ، وكتاب « مبدأ النيل على التحرير » للمحلى كما أن شمس الدين الجوجرى (من كُتاب القرن التاسع الهجرى) أنشأ منظومة من مائة وعشرين بيتاً يتكلم فيها عن النيـــل وفضائله ومزاياه ، ويشرح أحواله وعجائبه ومن أين يجىء وأين ينتهى[١] . وقد حظى النيل باهتمام كبار مؤرخى ذلك العصر مثل « تقى الدين المقريزى » و «ابن تغرى بردى» وابن أياس، وغيرهم . بل أن المقريزى أفرد كتاباً لمعالجة الأزمات الاقتصادية والمجاعات والأوبئة الناجمة عن قصور النيل وتعرض لأسباب هذه المجاعات كما تعرض لوصف طبقات المجتمع ووسائل الحكام فى معالجة هذه المجاعات[٢] . كما حرص بعض كبار المؤرخين على ذكر أخبار النهر وفيضانه السنوى بانتظام فى مؤلفاتهم فإن المؤرخ أبا المحاسن يوسف بن تغرى بردى يختم الحديث عن حوادث العام فى حوليته الشهيرة بذكر أحوال النيل ، وما تبقى من الماء القديم فى النهر ، ومقدار الزيادة الجديدة »[٣] . بينما حرص أبن أيبك الدودار على افتتاح الكلام عن أحداث السنة فى حولياته بذكر أحوال النهر ومقدار الماء القديم المتبقى فى النهر ثم مقدار الزيادة بادئاً أحداث العام بقوله « النيل المبارك فى هذه السنة[٤] » زد على ذلك أن وفاء النهر أو قصوره كان موضع اهتمام معظم كتاب ذلك العصر إن لم يكن موضع اهتمامهم جميعاً .

وقد شابت الكتابات التى تناولت النيل من وجهة نظر الجغرافيا الخرافات والأساطير التى يحتمل أن تكون ذات أصل مسيحى ويهودى[٥] وعموماً فإن الصورة التى تعطيها

---

(١) انظر منظومة الجوجرى (شمس الدين محمد الجوجرى الشافعى ت ٨٤٦هـ) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٧٠ جغرافيا .

(٢) انظر كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور جمال الدين الشيال سنة ١٩٤٠ .

(٣) انظر « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » طبعة دار الكتب حتى جـ١٤ وطبعة كالفورنيا .

(٤) انظر «كنز الدرر وجامع الغرر » مخطوط بدار الكتب ، وانظر كذلك « الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر » وهو الجزء التاسع من كنز الدور نشر رويمر — القاهرة سنة ١٩٦٠ .

(٥) Ency. of Islam ; Art Al Nil.

لنا تلك الكتابات صورة مشوشة ومضطربة وتعتمد أساساً على النقل من القدماء لا سيما بطليموس الجغرافى ، ولم تزد معلوماتهم فى هذا المقام كثيراً عما أورده القدماء ولكن وصفهم لمجرى النهر من الجنادل فى منطقة أسوان حتى مصبه فى البحر المتوسط تتسم بالدقة ، ونظراً لأن منابع النيل كانت مجهولة لديهم ، كما أن الأحراش والأدغال التى تعترض مجرى النيل فى أعاليه كانت عقبة كؤوداً فى وجه من حاول تتبع مجرى النهر الأعلى حتى المنابع[١] ، فقد تصورت الأساطير والخرافات التى أوردها كتاب ذلك العصر منطقة المنابع أرضاً خيالية تنبت فيها قضبان الذهب والفضة والنحاس والحديد ، ويجرى فيها بحر من الزفت تنبعث منه الروائح الكريهة التى تقضى على من يقترب من المنطقة التى توجد بها أيضاً أحجار مغناطيسية تجتذب كل من ينظر إليها وتقضى عليه . ويعكس ذلك — بطبيعة الحال — جهل كتاب ذلك العصر بمنطقة المنابع من ناحية ، والخوف من المجهول فى تلك المنطقة من ناحية أخرى .

ويتفق معظم جغرافيىّ ذلك العصر ومؤرخيه على أن النهر ينبع من جبال القمر خلف خط الاستواء من عيون فى الأرض تجتمع فى عشرة روافد تجتمع كل خمسة منها لتصب فى بحيرة ثم تخرج ستة أنهار من البحيرتين لتجتمع مرة أخرى فى بحيرة واحدة حيث يخرج نهر النيل[٢] وقد وصل بعضهم إلى حد الزعم بأن نهر النيل ونهر السند ينبعان من أصل واحد ، ودليلهم فى ذلك اتفاق زيادتهما ووجود التمساح فيهما[٣] وربما يكون ذلك هو السبب فى نسب نهر النيل إلى أنهار الجنة التى كان مكانها وفقاً للنظرية السائدة آنذاك فى أقصى الشرق وعلى الناحية الأخرى من بحر الظلمات (الأقيانوس)[٤] .

---

(١) ظلت هذه العقبة موجودة حتى العصر الحديث حين بدأت حملات الاستكشاف تخرج إلى منطقة أعالى النيل منذ عهد محمد على حتى تم استكشاف هذه المنطقة تماماً فى أواخر القرن ١٩ م — (انظر كتاب « نهر النيل » للدكتور محمد عوض محمد — المقدمة التاريخية) .

(٢) المنوفى : الفيض المديد ص ٤ — ٥ (مخطوط) ، السيوطى : كوكب الروضة ص ٥٤ — ٥٧ (مخطوط) ، (أورد السيوطى خريطة لنهر النيل من منبعه إلى مصبه وفقاً لتصور جغرافيىّ ذلك العصر) ، مقدمة ابن خلدون ص ٤٥ — ٤٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى : جـ٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٣) السيوطى الكلام على النيل ص ٢٦ (مخطوط) .

(٤) Ency. of Islam : Art Al Nil.

وتذكر الأساطير العربية أن نهر النيل كان يتبدد على وجه الأرض فلما قدم نقراوش الجبار بن مصرايم الأول بن كابيل بن دوابيل بن آدم عليه السلام إلى أرض مصر ومعه عدة من بني عرباب واستوطنوها وبنوا مدينة أمسوس ، حفر قومه النيل حتى أجروا ماءه إليهم ، وكان يتفرق على سطح الأرض فوجه الملك نقراوش المهندسين فهندسوه وساقوا منه أنهاراً كثيرة إلى مدنهم التي بنوها ، ولما خربت مصر بالطوفان عدل جانبي النهر تعديلا ثانياً(١) .

وتقول أسطورة أخرى أن الوليد بن دومع العليقي (أحد أبطال الأساطير العربية التي نسجت حول تاريخ مصر الفرعونية) خرج في جيش كثيف ينتقل في البلاد ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها فلما وصل إلى الشام علم بثروة مصر وأن أمرها قد صار إلى النساء بعد هلاك ملوكها فوجه غلاماً يقال له « عون » إلى مصر وسار إليها بعده واستباح أهلها ، وأخذ الأموال وقتل جماعة من كهنتها ، ولما استولى عليها «سنح له أن يخرج ليقف على منابع النيل ليعرف ما بحافتيه من الأمم » وقضى ثلاث سنوات في الإعداد لهذه الحملة الضخمة وخرج في جيش عظيم وسار يريد أعالي النيل فلم يمر بأمة الا أبادها ومر على أمم السودان وجاوزهم ، ومر على أرض الذهب فوجد بها قضباناً نابتة من الذهب ، وواصل سيره حتى وصل إلى البطيحة العظيمة التي ينصب فيها ماء النيل من الأنهار التي تخرج من جبال القمر ، وتجاوز في مسيره هيكل الشمس سائراً حتى جبل القمر حيث شاهد النيل يخرج من تحته في نهيرات صغيرة تتجمع لتصب في بحيرتين ، ثم يخرج منهما في نهرين حتى ينتهي إلى بحيرة أخرى ، وإذا خرج من خط الاستواء أمدته عين تخرج من ناحية نهر مهران بالهند . وبعد ذلك كر الوليد هذا راجعاً إلى مصر حيث قتله أحد الأسود(٢) وتحكي اسطورة أخرى أن « هرمس الأول » الذي ينسب إليه بناء الأهرام وفقاً لرواية الأساطير العربية قد حملته الشياطين إلى جبل القمر فرأى كيفية خروج النيل فبنى في سفح ذلك الجبل قصراً به خمسة وثمانون تمثالا من النحاس تتحكم في مخارج مياه النيل(٣) .

(١) المقريزي : الخطط جـ١ ص ٥٠ — ٥١ .
(٢) المرجع السابق نفس الجزء ص ٥١ — ٥٢ ، المنوفي الفيض المديد ص ٩ (مخطوط) .
(٣) ابن الوردي : خريدة العجائب ص ١٥٤ — ١٥٥ .

وثمة أسطورة تقول إن رجلا يقال له «حائد» (أو حامد) بن أبى شالوم بن العيص ابن إسحق بن إبراهيم عليه السلام خرج من موطنه الأصلى وسار فى البلاد حتى وصل إلى مصر ، فلما رأى نهر النيل سأل الله ألا يفارق ساحلها حتى يبلغ منتهاه ، فسار ثلاثين سنة فى العمران ، ومثلها فى الخراب ، حتى انتهى إلى بحر أخضر فرأى النيل ينشق مقبلا ، فاستمر فى مسيرته ، حتى قابل رجلا من أبناء عمومته يسمى « عمران » ثم تذكر الأسطورة أن حواراً تم بينهما يفهم منه أن عمراناً هذا دل « حائداً » على طريق منابع النيل وأوصاه أن يدفنه بعد عودته . . . وتمضى سطور الأسطورة لتحكى كيف سار حائد هذا منتقلا ما بين أرض الحديد ، إلى أرض النحاس ، ومنها إلى أرض الفضة حتى ينتهى إلى أرض الذهب حيث يرى أربعة أنهار ، ثلاثة منها تغيض ، والرابع يفيض على سطح الأرض وهو نهر النيل ، وتحكى الأسطورة كيف أن حائداً هذا أخذ رزقه من الجنة (التى شاهد النيل يخرج منها) ثم عاد أدراجه ليجد أن عمراناً مات فدفنه حسب وصيته ، ثم عاد إلى مصر فأخبر أهلها بذلك[1] .

وهكذا فإن فكرة المعاصرين عن منابع نهر النيل لم تعتمد على مشاهدات حقيقية ، وإنما اعتمدت على النقل من الأقدمين ، ثم على الروايات الأسطورية التى هى فى حقيقتها إنتاج الخيال بسبب العجز عن معرفة الحقيقة عن أعالى النيل وقد أدرك هذا بعض كتاب عصر سلاطين المماليك ومن بينهم ابن فضل الله العمرى إذ يقول « . . إن القصص التى تتحدث عن محاولات ملوك الأقدمين الكشف عن أصل النيل مبنية على النظريات العلمية وليس على المشاهدة . . » كما يقرر أن الأقوال فى أول مجرى النيل كثيرة « . . . والشائع أن أحداً ما وقف على أوله بالمشاهدة . . . وجعل كل واحد منهم سبباً لعدم الوقوف على أوله . . »[2] وهو فى هذا يحتكم إلى المنطق ، ويقترب من الحقائق فى موضوعية دون أن يجرفه الخيال وبريق الأساطير .

وعن محاولات كشف منابع النيل بعد الإسلام أورد المؤرخون قصة مؤداها أن بعض الخلفاء أرسل عدة رجال لكشف منابع النيل ، ولما وصلت المجموعة إلى جبل القمر

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٣٤٣ – ٣٤٦ ، المنوفى : الفيض المديد ص ١٠ – ١١ (مخطوط) .

(٢) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار جـ١ ص ٦٨ – ٧١ .

صعد أولهم إلى أعلاه حيث ضحك وصفق ثم مضى ولم يعد ، وصعد رجل آخر فف
مثله ، ثم صعد ثالث وربطه رفاقه بحبل جعلوه معهم حتى لا يمضى كسابقيه فخر
ومات من ساعته[1] وتذكر قصة أخرى أن الملك الصالح نجم الدين أيوب أراد أن يعر
أصل النيل فأمر بشراء عبيد صغار زنوج أو ما شابههم ويسلموا لصيادى السم
والتجار ليتعلموا صنعة البحر وصيد السمك كى يكون غذاءهم ، فإذا مهروا فى ث
يصنع مراكب صغار ليركبوها ويأتوه بخبر النيل ولكن المحاولة باءت بالفشل[2] ومـ
يكن نصيب هاتين القصتين من الصحة فإنهما تعكسان مدى الاهتمام بمنابع النيل .

وإذا كان نهر النيل قد نال حظاً موفوراً بين مواضيع الأساطير العربية كما يتض
من السطور السابقة ، فإنه لقى نفس الاهتمام من القصص الدينى ، وثمة محاولة دا
وثابتة من جانب المؤرخين والجغرافيين فى عصر سلاطين المماليك للربط بين ن
النيل والقصص الدينى سواء كان ذلك القصص وارداً فى القرآن الكريم أو فى أحادي
الرسول عليه الصلاة والسلام وما أثر عن الصحابة والسلف الصالح ومفسرى القر
الكريم ، فقد قيل أنه لم يرد فى القرآن الكريم اسم نهر سوى نهر النيل وذلك فى ق
سبحانه وتعالى « . . وأوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » . .
واليم هنا (أى البحر) يقصد به نهر النيل ، وفى قوله تعالى حكاية عن فر
« . . . أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى . . . » وفسر بعض المفسرين ه
الآية الكريمة بأن أرض مصر فى أيام فرعون كانت عامرة بالقناطر والجسور بتد
وتقدير حتى أن الماء يجرى تحت منازلهم وأقبيتها فيحبسونه كيف شا
ويطلقونه حيث شاءوا . كذلك ورد ذكر نهر النيل فى قوله تعالى « فأخرجنا
من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم » وتفسير هذه الآية — فى رأى هؤلاء المفسرين
أن الجنان كانت بأرض مصر بحافتى النيل من أوله إلى آخره فى الجانبين جميعاً ما بـ
أسوان إلى رشيد[3] ، وقد فسر البعض قوله تعالى إخبارا عن فرعون الذى حدد لموس
عليه السلام موعداً للاجتماع « . . قال موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى . .

(١) المحلى : مبدأ النيل على التحرير ص ٢ — ٣ (مخطوط) .
(٢) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٦٤ .
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٤٠ — ٣٤١ ، الكلام على النيل : ص ١٣ / ١٩ (مخطوط
كوكب الروضة ص ٤٩ (مخطوط) .

بأنه يعنى الاحتفـــال بوفاء النيل وكسر الخليج إذ أن العادة جرت منذ القدم على أن اجتماع الناس لتخليق المقياس يكون فى هذا الوقت[١] .

كما أن المؤلفات المعاصرة امتلأت بأحاديث كثيرة منسوبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام تنسب النيل إلى أنهار الجنة ، وتضفى عليه صفة القدسية ، وتخلع عليه صفة الإيمان[٢] وطبيعى أن النهر الذى كان إلهاً فى عصور الوثنية (حابى) لا يمكن أن يحتفظ بألوهيته فى ظل الإسلام دين التوحيد ، ولكن أهمية النهر فى حياة البلاد ووجودها جعلت النهر يحتفظ بصفات القدسية فهو من أنهار الجنة وسيد الأنهار وهو النهر المؤمن فى الأحاديث التى نسبت إلى النبى صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح . ونسوق مثالا للأحاديث الشريفة عن نهر النيل ما جاء فى البخارى عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبى عليه الصلاة والسلام قوله فى حديث المعراج « ... ثم رفعت لى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، قلت : ما هذا يا جبريل ، فقال : هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ، ونهران باطنان . قلت ما هذا يا جبريل ، قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فهما النيل والفرات . . . »[٣] ونقل المقريزى فى خططه ما جاء فى كتاب غريب الحديث لابن قتيبة وفى حديثه عليه الصلاة والسلام « نهران مؤمنان ، ونهران كافران . أما المؤمنان فالنيل والفرات ، وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ » وتفسير ذلك أن النيل والفرات مؤمنان لأنهما يفيضان على الأرض ويسقيان الحرث والشجر بلا تعب فى ذلك ولا مؤونة ، وجعل دجلة وبلغ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض ولا يسقيان إلا شيئاً قليلا وذلك القليل بتعب ومؤونة فهذان فى الخير والنفع كالمؤمنين وهذان فى قلة الخير والنفع كالكافرين[٤] . وورد فى الحديث أيضاً أن

---

(١) النويرى نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٦٤ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٦٠ الكتبى : مباهج الفكر جـ ١ / ق ٢ ورقة ٨٦ .

(٢) الحجازى : نيل الرائد ص ٨ (مخطوط) ، السيوطى : الكلام على النيل ص ١٣ – ١٩ (مخطوط) المحلى : مبدأ النيل ص ٧ – ٩ (مخطوط) .

(٣) المنوفى : الفيض المديد ص ٩ ، المقريزى : الخطط جـ١ ص ٥٠ ، اللتى : مباهج الفكر جـ/١ ق٢ ورقة ٨٤ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٦٣ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٤٩ – ٥٠ .

جبريل عليه السلام نزل بالنيل والفرات على جناحيه « فكان النيل على جناحه الأيسر والفرات على جناحه الأيمن ، وقال بعض الفضلاء أن هذا يدل على أن ماء النيل أخف من ماء الفرات لان الشيء الثقيل من عادته يحمل على الجانب الأيمن والخفيف على الجانب الأيسر ، وكون جبريل حمل النيل على جناحه الأيسر دليل خفته[١] » .

ويضيق بنا المقام عن تتبع كل الأحاديث التى نسبت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الصدد ولكن ذلك يعكس أمراً هاماً وهو مكانة نهر النيل فى نفوس المعاصرين وهى المكانة التى انعكست فى كتابات مؤلفى عصر السلاطين المماليك الذين حاولوا إضفاء صفة القداسة على النهر الخالد فهو يجرى بوحى من الله ويعود بوحى منه سبحانه وتعالى ، وهو سيد الأنهار سخر الله له كل الأنهار والعيون لتمده بمائها وقت زيادته ، كذلك فهو النهر المؤمن وهو نهر الخمر لدى أهل الجنة[٢] .

وتروى إحدى القصص الدينية أنه لما خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام مثل له الدنيا مشرقها ومغربها ، وسهولها وجبالها ، وأنهارها وبحارها ، وبناءها وخرابها ، ومن يسكنها من الأمم ومن يملكها من الملوك ، فلما رأى مصر رأى أرضاً سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة وتمزجه الرحمة فدعا للنيل بالبركة ودعا فى أرض مصر بالرحمة ، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات[٣] كما تحكى قصة أخرى أن النيل هبط فى زمن فرعون ، وطلب الناس منه أن يجريه لهم ولكنه ردهم بحجة عدم رضائه عنهم وغضبه عليهم ، ولما هددوه باتخاذ إله غيره خر ساجداً لله تعالى وألصق خده بالأرض وأخذ يتذلل إلى الله سبحانه وتعالى أن يجرى النيل فأجراه الله كما لم يجر من قبل ، فخرج فرعون إلى قومه وقال لهم إنى أجريت لكم النيل فخروا له ساجدين ، وجاءه جبريل عليه السلام وسأله عن جزاء عبد كان عنده وائتمنه ولكن العبد خان الأمانة فقال فرعون إن جزاء هذا العبد أن يغرق فى بحر القلزم ، وحصل منه جبريل على كتاب بذلك ، فلما كان يوم البحر (اليوم الذى غرق فيه فرعون وجنوده فى مياه البحر

---

(١) ابن الأخوه : معالم القربة ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٩ ، السيوطى : كوكب الروضة ص ٥٠ — ٥١ (مخطوط) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٠٧ . الحجازى : نيل الرائد ص ٨ — ٩ ، المنوفى : الفيض المديد ص ١٢ (مخطوط) .

(٣) السيوطى : كوكب الروضة ص ٥٠ — ٥١ (مخطوط) .

حين خرجوا يطاردون موسى وقومه) جاءه جبريل بالكتاب وقال لفرعون خذا هذا ما حكمت به على نفسك »[١] .

وكان الفيضان وأسبابه مرتعا لخيالات مؤرخى عصر المماليك وجغرافييه ومجالا لتخمينهم . واعتمدوا فى هذا المقام أيضاً على ما نقلوه من كتابات القدماء؛ ولكن بعضهم اقترب من السبب الحقيقى للفيضان أو كاد فقيل أن سبب الزيادة هو نزول الأمطار فوق جبال الحبشة صيفاً « فيأتى مددها إلى مصر » ، ولكنهم تصوروا أن رياح الشمال تهب فترتفع مياه البحر المتوسط لتحجز مياه نهر النيل حتى يفيض ويروى البلاد ثم تهب رياح الجنوب لتجعل مياه النيل تصب فى البحر المتوسط[٢] كما ذكر البعض أن زيادة نهر النيل زمن الفيضان من عيون على شاطئيه « رآها من سافر ولحق بأعاليه »[٣] كما أن كتابات ذلك العصر حاولت إكساب نهر النيل طابع القدسية فى هذا الصدد أيضاً ، فقيل أن الله سبحانه وتعالى يأمر كل الأنهار والعيون أن تمد النيل بمياهها وقت زيادته ، فإذا اكتفى الناس برى أراضيهم وزراعاتهم أمر الله نهر النيل أن يعود كما كان[٤]. وربما نتج هذا التصور فى أذهان كتاب عصر المماليك من حقيقة أن نهر النيل يزيد صيفاً أى فى الوقت الذى تنقص فيه مياه سائر الأنهار المعلومة لديهم .

ورغم تخميناتهم ونظرياتهم المشوشة عن منابع النيل وأسباب الفيضان وما شابهها من أسطورية وخيال فإن وصفهم لمجرى النيل — من حدود مصر الجنوبية عند الجنادل حتى مصبه فى البحر المتوسط — يستقيم ويتضح فى كتاباتهم ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى أنهم شاهدوا هذه المنطقة بأنفسهم وركبوا النيل من مكان إلى آخر ما بين أسوان ودمياط ورشيد ومن ثم جاءت كتاباتهم دقيقة اعتماداً على المشاهدة وليس النقل . كما عدد كتاب عصر سلاطين المماليك مزايا النهر ومحاسنه التى لمسوها بأنفسهم فهو النهر الوحيد المعلوم لديهم الذى يجرى من الجنوب إلى الشمال ، وهو أطول أنهار

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٣٤٠ — ٣٤١ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٥٨ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٦٤ — ١٦٥ ، السيوطى الكلام على النيل ص ٢٤ ، حسن المحاضرة جـ٢ ص ٣٤٨ .

(٣) الكتبى : مباهج الفكر جـ١/ق٢ ص ٨٥ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٦٥ ، المقريزى : الخطط جـ١ ص ٥٨ .

(٤) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٦٩ ، المقريزى : الخطط جـ١ ص ٤٩ — ٥٠ .

الدنيا(١) كذلك تعددت كتاباتهم فى وصف ما يزرع على النيل وذكروا أنه لا يوجد نهر فى الدنيا يزرع عليه ما يزرع على نهر النيل ، كما أن ما يعتبر عيوباً ونقائص فى الأنهار الأخرى اعتبره هؤلاء محاسن ومزايا فى نهر النيل(٢) وقد كتب كثيرون عن فضائل مياه نهر النيل التى وصفت بأنها أخف مياه الدنيا وأحلاها وأرواها وأمراها وأعمها نفعاً وأكثرها خراجاً(٣) وذكر المقريزى فى خططه أن ماء النيل يكون أكثر صلاحية للشرب فى طوبة عند تكامل البرد ، وأورد ما يكون عند الفيضان وعند وقوف حركته ، فعند ذلك ينبغى أن يطبخ ويبالغ فى تصفيته بقلوب نوى المشمش وسائر ما يقطع لزوجته ، وقد عرف المصريون بالتجربة أن ماء طوبة أجود المياه حتى صار كثير منهم يخزنه فى القوارير الزجاج والصينى ويشربه السنة كلها ، ويزعم أنه لا يتغير(٤) وقال ابن أياس أن ماء النيل المبارك من أجل منافع مصر لسرعة هضمه للأكل ونقل عن بعض الحكماء قولهم « لولا ماء الليمون على أهل مصر لوخموا من حلاوة ماء النيل»(٥) كما ذكر المقريزى نقلا عن ابن سينا أن مياه النيل تجمع فيها كل صفات « المياه الفاضلة »(٦) .

أما فيما يتعلق بالأسماك والحيوانات المائية التى تواجدت فى نهر النيل فإن كتاب عصر سلاطين المماليك أسهبوا فى الحديث عنها ، واعتبروا بعضها من العجائب ، ومن هذه الحيوانات المائية التمساح فذكروا أنه لا يوجد إلا بنهر النيل ونهر مهران فقط وكان ذلك دليلا لديهم على أن النهرين يخرجان من منبع واحد ، كما تحدثوا فى كتاباتهم عن السقنقور (وهو — وفقاً لأوصافه التى أوردوها — حيوان مائى يتواجد فى منطقة أسوان والنوبة شبيه بالتمساح وهو من نسله إذا وضعه فى الماء فإذا اتجه إلى البر صار سقنقورا ، وإن اتجه إلى مياه النهر صار تمساحاً) . ومن بين أسماك النيل التى ذكرها كتاب عصر

---

(١) ابن الوردى : خريدة العجائب ص ١٥٤ — ١٥٥ ، الحجازى : نيل الرائد ص ١٢ — ١٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج٢ ص ٣٥٥ أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٤٤ — ٤٦ ، المنوفى : الفيض المديد ص ١٩ — ٢٤ ، ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٢٥ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٢) السيوطى : كوكب الروضة ص ٦٦ ، حسن المحاضرة ٢ — ص ٣٥٤ — ٣٥٥ .

(٣) أبوالفداء : تقويم البلدن ص ٤٥ — ٤٦ ، المنوفى : الفيض المديد : ص ١٩ — ٢٤ .

(٤) المقريزى : الخطط ج١ ص ٦٤ .

(٥) ابن أياس : بدائع الزهور ج١ ص ٥ (ط . بولاق) .

(٦) المقريزى : الخطط ج١ ص ٦١ — ٦٢ .

المماليك سمكة اسمها « الرعادة » تصيب من يلمسها بالرعشة ، ولذا يعمد الصيادون إلى إخراجها من شباكهم فور اصطيادها ، كما وصفوا فرس النهر ، وزعموا أن سمكة تعيش فى نهر النيل وهى شبيهة بإنسان ذى لحية طويلة وأطلقوا على تلك السمكة المزعومة اسم « شيخ البحر » وهى سمكة مشئومة إذا ظهرت فى مكان أعقب ظهورها القحط والموت والفتن « . . . وقيل أن دمياط ما تنكب حتى يظهر عندها . . . »[1] .

مما سبق يتضح لنا أن المؤرخين والجغرافيين فى عصر سلاطين المماليك أدركوا أهمية النهر فى حياة البلاد وانعكس ذلك الإدراك فيما بذلوه من عناية فائقة به على أساس أنه صاحب الفضل فى وجود المجتمع المصرى بشتى نواحى حياته ، وكما اهتم مؤرخو ذلك العصر ومؤلفوه بالنيل فإن النهر الخالد كان موضوعاً مفضلا يلهب خيال الشعراء والأدباء الذين وصفوا النهر ومجراه والمزارع والحدائق على ضفتيه كما تحدثوا فى أشعارهم عن السفن التى تجرى فوق صفحته ، وحفلت أشعارهم وكتاباتهم النثرية بالكلام عن الفيضان واحتفالات الوفاء وكسر الخليج ، ولم يقصر شعراء وأدباء مصر فى عصر سلاطين المماليك فى إبداء شعورهم نحو النيل والتعبير فى كتاباتهم — شعراً ونثراً — عن مشاعر عامة المصريين نحوه وكيف لا وهو مصدر اليُمن والبركة ، ومنبع الخير والرزق ، وعليه فى جملة الأمر مدار الحياة وقوام المعيشة[2] .

وسنكتفى فى هذا المقام بأن نورد بعض الأمثلة والنماذج الشعرية دليلا على احتفال الشعراء بالنهر العظيم ، وكيف أنهم كانوا يخاطبونه مخاطبة إنسان يعايشهم فهو الحبيب الذى يشتاقون إلى لقياه ، ويفرحون بمجيئه ، ويعاتبونه حين يتأخر عنهم ، ثم هو مجال متنزهاتهم وأفراحهم وإذا قصر عن الوفاء قلقوا وحزنوا وخشوا نزواته ، وتنعكس كل هذه المشاعر — بطبيعة الحال — فى أشعارهم .

قال أحد شعراء ذلك العصر يصف نهر النيل :

واها نيل مصرى أى عجيبة   بكر بمثل حديثها لا يسمع
يلقى الثرى فى العام وهو مسلم   حتى إذا ما مل عاد يودع

---

(١) السيوطى كوكب الروضة ص ٧١ — ٧٤ (مخطوط) ، حسن المحاضرة ج٢ ص ٦٩ — ٧٤ ، المنوفى : الفيض المديد ص ١٩ —٢٤ (مخطوط) .

(٢) المقريزى : الخطط ج١ ص ٦٣ .

مستقبل مثل الهلال فدهره أبداً يزيد كما يريد ويرجع[١]

يتحدث الشاعر فى الأبيات السابقة عن النهر وكأنه إنسان عاقل يأتى ليسلم على الأرض فى ميعاد الفيضان ، ويمكث حتى ينتابه الملل فينصرف مودعاً . وقال شاعر آخر متعجباً من أحوال النهر :

كأن النيل ذو فهم ولب لما يبدو لعين الناس منه
فيأتى حين حاجتهم إليه ويمضى حين يستغنون عنه[٢]

وقال شاعر ثالث فى تدرج زيادة النيل وعظم منفعته :

أرى أبداً كثيراً من قليل وبدراً فى الحقيقة من هلال
فلا تعجب فكل خليج ماء بمصر مسبب بخليج مال
زيادة إصبع فى كل يوم زيادة أذرع فى حسن حال[٣]

فى هذه الأبيات الثلاثة يوضح الشاعر قيمة الفيضان وأثره على الحياة الاقتصادية للبلاد ، وكيف أنها تسبب زيادة فى المال وتحسن الأحوال . وقال بعض الشعراء يصف إحداق النخيل والأشجار والمزارع بمجرى نهر النيل :

ما الخلد إلا مصر فى أيلول يحل بالغدو والأصيل
بالبر من نسيمها العليل كم سروة محفوفة بالنيل
كأنها مائدة البخيل[٤]

واستهوى منظر الغروب على شاطئ النيل أحد الشعراء فأنشد يقول :

انظر إلى النيل والشمس غاربة وانظر ما بعدها من حمرة الشفق
غابت وألقت شعاعاً منها يخلفها كأنما احترقت بالماء فى الغرق[٥]

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٦٢ .
(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة ، ابن أياس : بدائع الزهور : جـ٤ ص١١٣ (نشر محمد مصطفى) .
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٦١ .
(٤) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ١٧٠ .
(٥) السيوطى كوكب الروضة ص ٣٦ .

وقال آخر :

لعمرك ما مصر بمصر وإنمـــا هى الجنـــة لمن يتبصر
فأولادها الولدان من نسل آدم وروضها الفردوس والنيل كوثر (١)

وعن فيضان النيل والوفاء وكسر سد الخليج تكثر الأشعار التى حرص كثير من مؤرخى عصر المماليك على أن يوردوها فى ثنايا ما يكتبون . وكتب أحد الشعراء يتعجب من نهر النيل الذى لم يتخلف عن الوفاء فى زمن انعدم فيه الوفاء وتوارت القيم الأخلاقية الشريفة :

أتطلب من زمانك ذا وفاء وتأمل ذاك جهلا من بنيه
لقد عدم الوفاء به وأنى لأعجب من وفاء النيل فيه(٢)

وفى عيد كسر الخليج كتب أحد الشعراء :

ســـد الخليج بكسره جـــبر الورى طرًّا فكل قد غدا مسروراً
المـــاء سلطان فكيف تواترت عنه البشائر إذ غدا مكسوراً(٣)

وحدث سنة ٦٠٤هـ أنه كسر سد الخليج ليلا وبدون احتفال فقال بعض الشعراء :

منـــذ للســـلطان قالوا للورى بالـــكسر جـــبر
كسر الســـفر بليـــل فغـــدا للنـــاس كسر (٤)

وحين يتأخر النهر عن الوفاء كان الناس يفزعون ، وبطبيعة الحال يعبر الشعراء عن هذا الفزع فيما يكتبون من أشعار يعاتبون فيها النهر ويربطون أحياناً بين قصور النهر ، وفساد الحكومة القائمة من ذلك ما قاله أحد الشعراء يهجو المظفر بيبرس الجاشنكير :

لما تولى الخير عن أمم لم يحمدوا أمرهم فيها ولا شكروا
وكيف تمشى به الأحوال فى زمن لا النيل وافى ولا وافاهم مطر (٥)

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١/ق ٢ ص ١٦٩ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٦٣ .
(٣) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٦٠ .
(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور حـ ٢ ، ص ٣٤٥ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٠ .

وقد تبدو روح الفكاهة من خلال ما يكتبه الشاعر عندما يتأخر الفيضان ومثال ذلك :

إن عجل النيروز قبل الوفا عجل للعالم صفع القفا
فقد كفى من دمعهم ما جرى وما جرى من نيلهم ما كفى(١)

وإذا زادت مياه النهر عن الحد المطلوب حتى تغمر المياه الأراضى الزراعية ويفوت أوان الزرع يضطرب الناس ويتملكهم القلق خوف الغلاء والمجاعة ويعكس الشاعر ذلك فى قوله مخاطباً النيل كأنه إنسان يفهمه :

أبحر النيل لا تشره ولا تأت بما نكره
فقد وفيت بالحسنى ولكن زدت فى كره
ولا تترك قفا الخباز يوما يأكل الدرة
كم من خازن للقمح أمسى يظهر العذرة
ألم تعلم بأنك إن نزلت تركته عرة
فشهر دمعه حتى تراه فى الورى نهره
وسر عن مصر فى خير فقد طولت فى العشرة(٢)

وقد أورد كتاب ذلك العصر كثيراً من الأشعار التى قيلت فى النهر العظيم ووصف مجراه والمزارع والأشجار والنخيل التى تحف بشاطئيه ، والأشعار التى قيلت فى الفيضان واحتفالات الوفاء وكسر الخليج ، وما نظمه الشعراء حول قصور النيل عن الوفاء . ورغم ركاكة معظم هذه الأشعار إلا أن المجال ليس مجالا للنقد الادبى — الذى لاندعى لأنفسنا مكانة فيه — بقدر ما هو مجال لإظهار ما كتبه الشعراء المصريون فى عصر سلاطين المماليك معبرين بذلك عن مشاعر الناس تجاه النيل ومكانته فى نفوس أهل ذلك الزمان ويتضح من النماذج السابقة — وعشرات غيرها تغص بها مؤلفات عصر سلاطين المماليك — أنهم وصفوه بأنه إنسان لبيب يفهم ويعى ، ووصف أيضًا بأنه الحبيب الذى يشتاقون للقياه ويفرحون بمقدمه ، بل تخيل بعضهم حواراً بين النيل والبحر المالح يفاخر فيه

(١) السيوطى كوكب الروضة ص ٣٦ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة : ج ٢ ص ٣٥٩ .

كل منهما الآخر. كذلك تحدث الشعراء عن نهر النيل وجزيرة الروضة والمقياس وأماكن الفرجة والمتنزهات التى يمكن أن تتاح لمن يركب النيل كما نظموا الأشعار عن المناظر الخلابة التى شاهدوها مقترنة بالنيل[1] وكانت مسرحاً لخيالهم ومراحاً لانفعالاتهم .

وكان من بين دواوين الدولة فى عصر سلاطين المماليك « ديوان الأنشاء » وعنه كانت تصدر الرسائل السلطانية « الرسمية » والمكاتبات العامة ، وكانت الدولة تستخدم فى هذا الديوان أهل العلم والأدب وكبار أولى المعرفة وكانت رسائل البشارة بوفاء النيل من بين الرسائل الرسمية التى تصدر عن هذا الديوان . وفى هذه البشارة يعلنون الناس بوفاء النيل حتى تطمئن القلوب وترتاح النفوس ، وكانت هذه البشارة من خصائص الديار المصرية «لا يشاركها فيها غيرها من الممالك» . وقد حرص حكام مصر من قديم الزمان أن يكتبوا البشارة بوفاء النيل إلى ولاة الأعمال « . . . اهتماماً بشأن النيل ، وإظهاراً للسرور بوفائه الذى يترتب عليه الخصب الذى يؤدى إلى العمارة وقوام المملكة . . .»[2] .

وربما يكون من المفيد فى هذا المقام أن نورد نموذجاً لهذه البشارات وهى البشارة التى كتبها الأديب « تقى الدين أبو بكر بن حجة » عن السلطان المؤيد شيخ سنة ٨١٩هـ ، ومنها « . . . ونبدى لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذى عاملنا الله فيه بالحسنى وزيادة، وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة ، وخلق أصابعه ليزول الإبهام ، فأعلن المسلمون بالشهادة وكسر بمسرى ، فأمسى كل قلب بهذا الكسر مجبوراً ، وأتبعناه بنوروز ، وما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدى مكسوراً ، مدققاً السودان فالراية البيضاء من قلع عليه، وقبل ثغور الإسلام فأرشفها ريقه الحلو فمالت أعطاف غصونها إليه، وتسبب خريره فى الصعيد بالقصب ، ومن سبائكه الذهبية إلى جزيرة الذهب فضرب « الناصرية » واتصل « بأم دينار» ، وقلنا لولا أنه صبغ بقوة لما جاء وعليه ذلك الاحمرار وأطال الله عمر زيادته فتردد إلى الآثار وعمته البركة فأجرى سواقى ملكه إلى أن غدت جنة تجرى من تحتها الأنهار وحضن مشتهى الروضة فى صدره وحنا عليها حنو المرضعات على الفطيم .

وأرشفنا على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم

---

(١) المرجع السابق ص ١٢ — ١٧ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٨ — ٣٣٠ .

وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النوى والحب فأرضع فى أحشاء الأرض جنين النبت ، وأحياله أمهات العصف والأب وصافحته كفوف الموز فختمها بخواتمه العقيقية ، ولبس الورد تشريفه ، وقال أرجو أن تكون شوكتى قوية ، ونسى الزهر بحلاوة لقائه مرارة الندى ، وهامت به مخدرات الأشجار فأرخت ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى واستوفى النبات ما كان له فى ذمة الرى من الديون . »

وتستطرد سطور البشارة على هذا النحو إلى « . . . وكلما زاد الله فى حسناته فلا فقير سد إلا حصل له من فيض نعماه مفترج ، ولا بيت خليج إلا عاش به ودبت فيه الروح ، ولكنه احمرت عيناه على الناس بزيادة وترفع ، فقال له المقياس : عندى قبالة كل عين إصبع ، ونشر أعلام قلوعه وحمل وله على ذى الجزيرة زمجرة ، ورام أن يهجم على غير بلاده ، فبادر إليه عزم المؤيدى وكسره . . »[١] .

من هذا النموذج للبشارات يتضح لنا مدى شغف منشىء هذه البشارات بالنهر الخالد وكبير محبتهم وإعزازهم إياه من ناحية ، كما يتضح مدى التزامهم بأصول وقواعد الكتابة الفنية المرعية آنذاك من ناحية أخرى . ولكن أمر البشارات لم يكن مقصوراً على « الرسميات » وعلى ديوان الإنشاء فقط ، بل كان بعض الأدباء خارج الديوان يكتبونها فى مناسبة وفاء النيل تقليداً لما يكتبون فى الديوان أو معارضة لإحدى رسائل البشارات التى سبقت كتابتها فى مناسة الوفاء ، ومن ثم كانت البشارات بوفاء النيل غرضًا هامًّا من أغراض النثر الفنى فى عصر سلاطين المماليك . ولم تكن البشارات وحدها هى اللون الوحيد التى تناولت نهر النيل وفيضانه ، وما يتصل به من أمور ، فقد كتبت فى ذلك الرسائل الإخوانية والمقامات والمفاخرات والألغاز ، وتحدث البعض فى مراسلاتهم الإخوانية عن النيل وفيضانه أو طغيانه أو فوائده لمصر[٢] .

وفى السطور التالية بعض نماذج أخرى لقطع نثرية تتحدث عن النيل كتبها بعض أدباء ذلك العصر ، فقد قال بعضهم يصف النيل إبان الفيضان « . . . وأما النيل فقد امتدت أصابعه ، وتكسرت بالموج أضالعه ولا يعرف الآن قاطع طريق سواه ولا من

---

(١) السيوطى حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٧١ — ٣٧٣ .

(٢) محمود رزق سليم : النيل فى عصر المماليك ص ٦٩ — ٧١ ، ص ٨٤ .

يرجى ويخاف إلا إياه . . . »[1] .

وقال أديب آخر يصف النيل إبان الفيضان « . . . وأما النيل إذا زاد نيله ، وتراكم سيله ، ولازم المعشوق ملازمة العاشق وقطع الطريق بكثرة مياهه ، وكاد يصل ارتفاعها إلى الطارق ، شبك بالخمس أصابعه ، وأغار على ما هناك من الضياع الثلاث والعدوية رابعة ، وتوجه إلى مصر فعم جهاتها وما خصص ، وأقام بدار النحاس ورصص ، وعقدت خيامه بأذيال الجبال الطنب ، وغسل بمائه جاره الجنب ، وأذاق الشجر من محمر مائه الموت الأحمر . . . »[2] .

ولعل من أجمل الأوصاف التى وصفت بها مصر ما ذكره بعض أدباء ذلك العصر من أن « ... مصر ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، وثلاثة أشهر مسكةسوداء، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء فأما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر فى أشهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء ، وضياعها على روابى وتلال مثل الكواكب قد أحيطت بالمياه من كل جانب فلا سبيل إلى قرية من قراها الا فى الزوارق . وأما المسكة السوداء فإنه فى شهر بابه وهاتور وكيهك ينكشف الماء من الأرض فتصير سوداء وفى هذه الأشهر تقع الزراعات . وأما الزمردة الخضراء فإنه فى شهر طوبة وأمشير وبرمهات يكثر نبات الأرض وربيعها فتصير خضراء كأمها زمردة ، وأما السبيكة الحمراء فإنه فى أشهر برمودة وبشنس وبؤونة يتورد العشب ويبلغ الزرع الحصاد فيكون كالسبيكة من الذهب منظراً ومنفعة .. »[3] ويعكس هذا الوصف الدور الرئيسى الذى يلعبه النهر فى تشكيل الحبات المصرية حتى فى مظهرها الخارجى :

وهكذا ومن خلال النماذج الواردة فى السطور السابقة ، ومن خلال عشرات النماذج التى تغص بها الكتب والمؤلفات المعاصرة نستطيع أن نحس حبًّا عظيماً ومكانه سامية لنيلنا العظيم فى نفوس أدباء وشعراء ذلك العصر فقد كان موضوعاً رئيسيًّا لكتاباتهم ، الشعرية والنثرية ، ولا غرو فهو قوام الحياة فى مصر ، ومحور النشاط الإنسانى على الأرض المصرية فإذا أوفى سارت الأمور سيرتها الطبيعية ، وإذا قصر سادت مظاهر

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٦٣ .

(٢) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ٢١٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٠ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٥ .

الفوضى والفزع ، وبالطبع ينعكس ذلك فيما يكتبه الأدباء والشعراء .

تنتقل بعد ذلك إلى ما كتبه الرحالة — الشرقيون منهم والغربيون — عن النهر الخالد فى تلك الأيام ، والواقع أن مصر كانت محط أنظار كثيرين من الرحالة من شتى الأنحاء فى عصر سلاطين المماليك ذلك أن العالم الإسلامى فى مشرقه ومغربه تعرض لضربات قاصمة نزلت على أطرافه فى العراق والشام بالشرق والأندلس بالمغرب بينما كانت مصر تعيش فى عزة ومنعة نسبية فى ذلك العصر جعلت القوى الكبرى تحسب حسابها وتخطب ودها ، ونتج عن ذلك نوع من الاستقرار أدى لنشاط علمى موفور علاوة على النشاط الاقتصادى الضخم الذى يسرّه موقع مصر الجغرافى كوسيط بين تجارة الهند وتجارة أوربا ، ومن ثم كان طبيعياً أن تكون مصر محط أنظار الرحالة من شتى الأنحاء ومزاراً يحج إليه طلاب العلم وطلاب التجارة على السواء وسنكتفى هنا بالحديث عن اثنين من الرحالة الشرقيين ، ومثلهما من الرحالة الغربيين كمثال لكتابات هؤلاء وأولئك .

ويعتبر الرحالة ابن بطوطه أهم الرحالة المسلمين الذين زاروا مصر فى ذلك العصر، وقد ولد بطنجة وخرج منها فى رحلات ثلاث واسعة النطاق جاب فيها كثيراً من البلاد واستغرقت الرحلة أربعة وعشرين عاماً حج فيها حجته الأولى وزار مصر وبلاد المغرب والشام وفلسطين ثم زار مصر مرة أخرى فى طريق عودته للوطن بعد أن وصل فى ترحاله إلى الهند وبلاد الشرق الأقصى ، وقد ألف كتاباً عن رحلته اسماه « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الاسفار »[١] ضمنه مشاهداته فى رحـــلاته . وقد وصف كثيراً من الأشياء التى شاهدها فى مصر ، وقال عن مصر والنيل « . . . ولها خصوصية النيل التى جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها . . »[٢] كما أورد بعض أبيات الشعر التى تمدح النيل ومصر ، وذكر مزايا النيل ومحاسنه وإن لم يخرج عن إطار الكتابات المعاصرة من حيث إيراد بعض آيات القرآن الكريم المتعلقة بالنهر والأحاديث التى تضفى على النهر صفة القدسية ، كما ذكر أن نهر النيل هو أحد الأنهار الخمسة الكبار فى الدنيا وهى النيل والفرات ودجلة وسيحون وجيحون على حد زعمهم[٣] .

(١) انظر رحلة ابن بطوطة (ط . باريس) .
(٢) رحلة ابن بطوطه ص ٦٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٧ — ٧٩ .

وقد وصف ابن بطوطة حركة الملاحة فى نهر النيل ومدى كثافتها فقال « ... ينهر النيل ستة وثلاثين ألف مركباً للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات ... »[١] كما تحدث عن مدينة دمياط حيث ينزل الناس من البيوت التى على شاطىء النيل إلى النهر بواسطة دركات ليأخذوا المياه ، وكيف أن إنتاج الموز بالمدينة كان كثيراً ويصدر إلى القاهرة فى المراكب ، كذلك تحدث ابن بطوطة عن رحلته فى نهر النيل ، إلى الصعيد وكيف أن المدن والقرى منتظمة على شاطئيه وهى عامرة بالأسواق والمساجد لدرجة أن المسافر فى المراكب لا يحتاج إلى أخذ شىء من الزاد معه لأنه متى أراد النزول إلى الشاطىء للوضوء والصلاة أو لشراء شىء من الزاد فيسجد حاجاته[٢] وقد تحدث ابن بطوطة عن فيضان نهر النيل وطريقة الرى والزراعة واحتفالات وفاء النيل وكسر الخليج ، كما أنه قد لاحظ العلاقة القوية بين حالة الفيضان والحالة الاقتصادية للبلاد وحدد نسب الفيضان المعروفة فى ذلك العصر ومدى ملاءمتها للرى والزراعة مبيناً أن قصور النهر عن حد الوفاء يجلب المتاعب والفوضى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، كما أن طغيان النهر على الأرض يخرب الدور ويفسد الزراعات وتنتج عن ذلك نفس المتاعب[٣] .

والمثال الثانى هو « الرحالة العبدرى » واسمه بالكامل « أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الحيحى » ويبدو أنه عربى من قبيلة قريش أصلا ، وقد بدأ رحلته من مراكش عبر بلاد المغرب العربى ثم دخل مصر من حدودها الغربية ثم واصل ترحاله براً فى طريقه إلى الأراضى الحجازية ثم مر بمصر مرة أخرى فى طريق عودته إلى بلاده[٤] . وقد وصف الإسكندرية وعمود السوارى ، كما وصف مدينة القاهرة وقد خصها بالذم وقال فيها كلاماً لم يقله أحد غـــيره بادئاً ذلك بقوله « . . . وجدناها معيدية المعنى ببعض ما رأينا بها وسمعنا . . . » مشيراً بذلك إلى المثـــل القائل « تسمع المعيــــدى خير من أن تراه »[٥] كما وصف الأهرام ، وقال العبدرى عن نهر

---

(١) المرجع السابق ص ٦٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٦ — ٦٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٨ .

(٤) انظر رحلة العبدرى : المقدمة (نشر محمد الفاسى الرباط ١٩٦٨) .

(٥) رحلة العبدرى : المقدمة .

النيل « . . . ونيلها من عجائب الدنيا عذوبة ، واتساعاً وغلة وانتفاعاً ، وقد وضع حوله المدائن والقرى فصار كسلك انتنظم درراً . . . »[١] .

وقد أورد العبدرى – كسائر المعاصرين – بعض الاحاديث النبوية والقصص الذى يجل قدر النيل ويحيطه بهالة من القدسية[٢] .

وقد تحدث أيضاً عن مزايا النهر وكيف أنه لا يوجد نهر يزرع عليه ما يزرع نهر النيل ، أو يجبى منه ما يجبى من نهر النيل ، وذكر مناسيب الفيضان ومد مناسبتها لحاجة الأراضى من الرى كما تحدث عن نظام الرى المصرى قا « . . . وصورة السقى عندهم أن أهل كل بلد لهم خلج تخرج منه (نهر النيل) فإذا أترعها أفاض على المزارع وسقتها كما تسقى سائر الأنهار ، وقد علموا أين ينته سقى كل مقياس . . . »[٣] وواضح أن العبدرى لم يكن قادراً على الإلمام بكـ هذه المعلومات خلال زيارته القصيرة لمصر وإنما استقاها من غيره أو من المصريين ، ولكـ تحدث عن الملاحة فى نهر النيل والقوارب التى تسير فوق صفحته ، ويبدو أن عم النهر قد أخافه فقد ظل يقرأ القرآن طوال وجوده فى المركب حتى عبر النهر[٤] .

أما الرحالة الأوربيون الذين زاروا مصر فى العصور الوسطى بوجه عام وفى عص سلاطين المماليك بوجه خاص فقد كان عددهم كبيراً ، ولكننا يجب أن نلاحظ أ إطلاق اصطلاح « رحالة » على هؤلاء غير جائز وذلك أن معظمهم جاء إلى مصر ف مهمات تجـــارية وسياسية وتكمن أهمية هؤلاء فى أنها تشمل معلومات طريفة لا تتواجد فى كتابات الرحالة المسلمين إذ أن ما يعتبره المسلمون أمراً عادياً فى حياتهم اليومية قد يبدو غريباً وطريفاً وجديراً بالتسجيل فى أعين مسيحىّ الغرب الأوربى ومن ثم جاءت هذه الملاحظات لتمدنا بالكثير من المعلومات عن أحوال مجتمع ذلك العصر .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٤٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٥ – ١٤٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٦ .

(٤) المرجع السابق ص ١٤٥ – ١٤٧ .

ومن أهم الرحالة الغربيين الذين زاروا مصر فى عصر سلاطين المماليك « بيلوتى Piloti de crete الذى زار مصر فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ، ومكث بها مدة طويلة ، وهو من أسرة من أعيان البندقية استوطنت الجزيرة (كريت) ، وقد صادفت الأربعون أو الخمس وأربعون سنة التى زاول فيها التجارة حكم خمسة من السلاطين الجراكسة فقد جاء إلى مصر فى أواخر عهد برقوق، ثم فرج بن برقوق الذى قربه إليه ، و« المؤيد شيخ » و« ططر» وأخيراً «برسباى»[١] وقد عاش بيلوتى فى مصر فترة كبيرة وأحبها وسماها « هذه البلاد السامية جداً » كما أسماها « بلاد الله الأولى » وقرر أنه « لا يوجد أغنى منها فى الدنيا » وأن تجارة الشرق والغرب لا يمكن أن تستغنى عنها ، كذلك تمنى أن يكتب الله له أن يموت فيها ، وأن يقبر فى كنيسة القديس سيرج بالفسطاط ، ولكنه توفى بفلورنسا على الأرجح[٢] .

وقد وصف مدينة القاهرة فقال أنها أكبر مدينة فى الدنيا وهى إحدى المدن السبع الكبرى ، وقد وصف نهر النيل بقوله « . . النهر الذى يقال أنه ينبع من الجنة الأرضية ويعيش الناس على مائه وحصاده وسمكه وفواكهه . . . » « والنهر واسع جداً قرب القاهرة لدرجة أن الناس تسميه البحر . . . »[٣] .

وتحدث عن مياه النهر فقرر أن « . . . ماء النهر أحسن ماء فى الدنيا لايوجد مثله . . .» ويستطيع الإنسان أن يشرب منه ما شاء وفى أى وقت يشاء دون أن يضره . ثم تحدث عن طريقة أخذ الماء من النهر وكيف أن هذا الماء يشفى المرضى ويفتح الشهية[٤] .

وتحدث بيلوتى عن فيضان النهر وأهميته بالنسبة للبلاد فقال « . . . فى بلاد السلطان لا تمطر الدنيا أبداً ويتركز الأمر والحياة على فيضان النيل السنوى » ، ثم وصف مقياس النيل فى جزيرة الروضة وطريقة قياس الزيادة وكيف يذهب كل يوم عدة رجال يركبون الخيول ويرفعون الأعلام إلى صاحب المقياس ليعلموا مقدار زيادة النهر ثم يسيرون فى شوارع المدينة يصيحون « أن النهر زاد كذا علامة » وذلك كى يطمئن الناس ، كما

(١) Dopp : L'Egypte au Com. p. 15

(٢) Ibid : pp : 15 - 16 (introd.).

(٣) Ibid : p : 3.

(٤) Ibid : pp : 9 - 10.

وصف احتفــالات كسر الخليج يوم وفاء النيل ، بأنها عيد كبير « تجرى فيه السفن والقوارب فوق النيل » ، وقد عاصر بيلوتى إحدى المجاعات التى ألمت بمصر بسبب قصور النيل ، ووصف حالة الفوضى الشاملة التى عمت البلاد ، وكيف أن أعداداً لا تحصى من الناس قد تساقطوا صرعى المجاعة فى الطرقات[١] .

وقد وصف بيلوتى طريقة الرى والزراعة لدى الفلاحين المصريين فى ذلك العصر ، وكيف أنهم يفتحون سدود الترع التى تعين عليها الحراسات أوقات الفيضان فى جماعات كل منها عشرة مماليك ، وذكر أنه بعد فتح السدود تصير الأرض كأنها منظر ماء بحر حقيقى ، وتصبح القرى فى الوسط كأنها جزائر يتم التنقل بينها بالقوارب ، وحين تجف الأرض يبذر الحب بطريقة بدائية[٢] .

كما وصف بيلوتى الكريتى حركة الملاحة فى نهر النيل وفروعه فقال « عند قرية شطانوف تجتمع كل القوارب الآتية من فرع رشيد والتى تأتى من دمياط حاملة بضائع وأشياء أخرى . . . . وعلى طول السنة نرى من جوانب الجزيرة (دلتا النيل) فى كل يوم آلاف المراكب تجرى فى النهر محملة بالبضائع الذاهبة إلى القاهرة[٣] » .

ومن الرحالة الذين زاروا مصر فى عصر سلاطين الرحالة « بيرو طافور » وهو أسبانى الأصل يرجح أنه ولد فى قرطبة ، وقد زار مصر سفيراً وباحثاً وتاجراً ، ورجلا متطلعاً لمعرفة حقيقة عالمه فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر[٤] وقد وصف ميناء دمياط وحدد موقعه من البحر المتوسط فقال أنه يقع على بعد فرسخ ونصف كما وصف الحمام الزاجل ونهر النيل الذى قام برحلة فوق مياهه من دمياط إلى القاهرة فى مركب وصفها فقال أنها مركب كبيرة بها حجرات متعددة وهى كبيرة الحمولة وتسير بالشراع والمجاديف ورغم ذلك فإذا واجهها التيار لا تسير إلا إذا جذبت بالحبال من على الشاطىء ، كما أنه مركب به عدة طبول لإخافة التماسيح التى يبدو أنها كانت كثيرة فى النهر آنذاك[٥] .

---

(١) Ibid : pp : 21 - 22.

(٢) Ibid : pp : 21 - 23.

(٣) Ibid., p., 21.

(٤) رحلة طافور (ترجمة د . حسن حبشى) : ص ى من المقدمة .

(٥) المصدر نفسه : ص ٥٩ .

وقد قال طافور عن مياه نهر النيل « . . . ماء نهر النيل أحسن ماء فى الدنيا ، وكأنه ماء الجنة ، ولم أشرب طول زيارتى سوى هذا الماء على الرغم من أنه كان باستطاعتى الحصول على النبيذ الجيد . . . »[١] .

كما وصف المقياس بجزيرة الروضة ، وكيفية قياس الزيادة وإعلانها فقال « .. إلى جانب مدينة بابليون حيث يشقها النهر توجد ثلاثة أعمدة تقوم فى الماء ذات خطوط معينة ، وكتابات قديمة ، فإذا كان الوقت شهر سبتمبر وقد ارتفع النهر أقيم الحراس عليها حيث يرقبون كل ساعة زيادة المياه ، فيذكرون مقدار الارتفاع لمنادين ينطلقون فى المدينة كل ساعة يعلنون وفى صوت عال مدى الزيادة فى النهر ، فإذا بلغت الزيادة أقصاها عرف الناس إلى أى حد يستطيعون بذر الحب ، وعما إذا كانت السنة خصبة أم مجدبة »[٢] .

وتحدث طافور عن الحيوانات المائية التى تعيش فى نهر النيل ، ووصف التماسيح وخطرها على الناس وكيف أن الفلاحين — لعجزهم عن استئجار القوارب — كانوا يعبرون مخاضات المياه أثناء الفيضان فوق ظهور الجواميس خوفاً من التماسيح ، كما وصف طريقة صيد التماسيح ، وكيف أن صائديها كانوا يسيرون بها فى الطرقات وهى ميته التماساً للصدقات من الناس ، كما تحدث عن أفراس النهر ووصف طريقة صيدها[٣] .

ونخلص من كل ما سبق إلى أن كتاب عصر المماليك — سواء كانوا مؤرخين أو جغرافيين شعراء أو أدباء ، وسواء كانوا من الرحالة (شرقيين وغربيين) — أدركوا قيمة النهر فى حياة مصر والمصريين فى ذلك العصر كما أدركها من سبقهم ومن لحقهم على مر العصور فحفلوا به وأفردوا للكتابة عن النهر الخالد الصفحات الطوال والمؤلفات يعددون فيها مزاياه وفضائله ، ويوضحون فضله على البلاد وأهلها ولا غرابة فى ذلك فالنهر الخالد هو أساس الوجود المصرى كله .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٣ — ٧٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٦١ .

وقد نتج عن انتظام الفيضان انتظام مماثل فى حياة المصريين بشتى وجوهها ، سواء فى الزراعة أو طريقة فرض الضرائب على نتاج الأرض الزراعية وسارت الحياة الاقتصادية وفقاً لتواريخ التقويم القبطى (الشمسى) المتوارث عن الفراعنة لا سيما فيما يتعلق بالزراعة .

وتدل مرتبة «كاشف الجسور » ، ومن يتبعه من الموظفين على العناية التى كان يبذلها المماليك لصيانة مراقق النهر ووسائل ضبطه .

وكان المفروض أن تمول هذه المنشآت من بيت المال ، ولكن الشعب كثيراً ما تحمل عبء تمويل هذه المرافق من أمواله فى شكل مقررات تجبى من الناس ، وكانت بعض الوظائف المؤقتة تنشأ لهذا الغرض .

وأوضحت فى هذا البحث أنه كلما كانت الحكومة قوية انعكس ذلك على كفاءة أعمال ضبط النهر والعكس صحيح تماماً . وكانت بعض هذه المنشآت تنشأ من أموال الأمراء الخاصة على سبيل الصدقة ورغبة فى التقرب إلى الله ، بينما كان بعض السلاطين يوقف وقفاً معيناً للإنفاق على هذه المرافق ، كما أن مبدأ تعويض أصحاب الأملاك التى كان يتم الاستيلاء عليها لمثل هذه الأغراض كان موجوداً على الأقل فى بعض الفترات .

ويتضح من هذا البحث أن العمال المستخدمين فى هذه الأعمال فى تلك العصور كانوا خليطاً من عمال السخرة والعمال المأجورين الذين كانوا يتقاضون أجورهم نقداً فى بعض الأحيان ، وفى أحيان أخرى يكون نصف الأجر نقداً والنصف الآخر عينياً ، وعادة ما كانوا يجمعون من بين جموع الفلاحين فى القرى وعامة أهل المدن .

وقد اهتم المصريون بقياس زيادة نهر النيل وترقبوها وتتبعوا أحوالها ، حتى إذا أوفى النهر أقيمت الزينات وبدأت مهرجانات العيد القومى احتفالا بوفاء النيل وفى بعض الأحيان كانت مصاريف هذه الاحتفالات تجبى من أبناء الشعب ولم تكن احتفالات الوفاء هى المظهر الاجتماعى الوحيد المرتبط بالنهر العظيم ، بل أن أن كثيراً من الأعياد المتوارثة عن قدماء المصريين مثل « النيروز» وعيد الشهيد « والصليب» ارتبطت بالنهر وكانت كلها أعياداً مصرية خالصة لم يجلبها العرب الفاتحون .

كذلك كان للنهر أثره فى الناحية السياسية ،إذ كان الناس —وفقاً لمفاهيم ذلك العصر—

على المحتاجين فى بعض الأحيان ولكن ذلك الموقف من جانب الحكومة كان ناجماً عن روح التصدق والإحسان ، ولم يكن تعبيراً عن إدراك حكام ذلك العصر لمدى مسئوليتهم تجاه الشعب وتوفير الرعاية والغذاء لأفراده ، بدليل أنه فى أثناء بعض الأزمات كان أمراء المماليك يقومون بنقل غلالهم إلى منازلهم فى حراسة « المماليك الملبسة » ، وبدليل ما كانت الدولة تلجأ إليه أحياناً من وسائل المصادرة والاستيلاء على أموال الناس لموازنة نفقاتها وإيراداتها التى تختل بسبب وجود الأزمة . وفى أحيان أخرى كانت الدولة تتخذ بعض الإجراءات الاقتصادية كالتسعير ، وتحديد المباع من الغلال بحد أقصى تجنباً « للخزن » أو السوق السوداء على حد تعبيرنا المعاصر .

وفى أثناء هذه المجاعات والاوبئة يهرب السلطان وأمراؤه من القاهرة إلى سرياقوس والطور وغيرهما ويفعل ذلك أيضًا الأعيان ومياسير الناس ويبقى «العامة » — سواد الشعب غذاء سهلا لهذه الكوارث والنكبات . .

ثالثاً : كان نهر النيل فى عصر سلاطين المماليك وسيلة مواصلات طبيعية لا نظير لها بواسطتها يمكن تباذل منتجات البلاد بين أنحائها ، وتنقل المسافرين بين مدنها وقراها وكانت مصر آنذاك سوقاً طبيعية لتبادل منتجات أوربا وإفريقيا وآسيا ، وكان النيل هو الوسيلة الرئيسية لنقل هذه البضائع ، ورغم أن التجارة الخاصة كانت شبه محرمة بسبب احتكار المماليك للتجارة ، إلا أن حركة الملاحة النيلية كانت كثيفة بدرجة كبيرة ، كما يبدو أن كل المدن المصرية الواقعة على شاطىء النهر كان لها موانىء ولو من نوع بدائى . بينما كان للقاهرة ميناءان أحدهما بساحل الفسطاط والثانى فى بولاق، وفى موانىء القاهرة كان يوجد « الجمرك » على تجارة المرور بين أفريقيا وآسيا وأوربا عبر الأراضى المصرية لكن النيل لم يكن فى كل الأحوال طريقاً مأموناً للتجارة بسبب قراصنة النهر لا سيما فى أوقات الفوضى والحروب الداخلية وحين تكون الحكومة ضعيفة .

وكانت هناك رسوم تفرض على المراكب والمسافرين فيها كما خضعت المراكب لرقابة من نوع ما ضماناً لسلامة المسافرين وكثيراً ما شهدت صفحة النهر الاستعراضات بالمراكب بعد استكمال بنائها برسم الجهاد ، أو قبل خروجها للحرب ضد أعداء البلاد فى الداخل أو الخارج .

رابعاً : سنجد أن بعض الكتابات الواردة عن النيل فى المؤلفات الباقية من عصر المماليك تعتمد على التراث اليهودى والمسيحى الذى جعل نهر النيل من أنهار الجنة التى تحدد النظريات الوسيطة موقعها فى أقصى شرق العالم على الجانب الآخر من الأقيانوس ، ويبرر هذا ما يذكره الكتاب من أن النهر يأتى عبر المحيط من الشرق ، كما يبرر ما جاء فى بعض الكتابات من أن النيل والسند ينبعان من مكان واحد .

وقد حظى النهر بمكانة هامة فى الأساطير العربية إذ دارت القصص الخرافية حول محاولات كشف منابعه ومجراه وتعليل ظاهرة فيضانه ، وإن كان البعض قد اقترب فى ذلك من الحقيقة أوكاد كما أن النهر الإله (حابى) فى عهود الوثنية قد أصبح نهراً مؤمناً ومن أنهار الجنة لدى كتاب العصور الوسطى المسلمين تعبيراً عن مكانة النهر العظيم فى نفوس أهل مصر ومن خالطهم .

وفى الشعر والأدب كان النهر موضوعاً مفضلا يلهب خيال الشعراء والأدباء فى عصر سلاطين المماليك ، ولم يقصر هؤلاء الشعراء أو الأدباء فى التعبير عن مشاعر المصريين تجاه نهرهم المحبوب ، ولا غرو فالنهر قوام الحياة المصرية ، وعليه مدارها فكان مسرحاً لخيالات الشعراء والأدباء ومجالا لتفكيرهم ومراحاً لحدسهم .

كذلك فإن الرحالة الذين زاروا مصر فى العصور الوسطى — وما أكثرهم من الشرق والغرب بسواء — أدركوا أهمية ذلك النهر فكتبوا عنه الكثير يصفون حلاوة مائه ، وحركة الملاحة فيه ، واحتفال المصريين بوفائه وما إلى ذلك من الأمور .

ملحق رقم (١)

ثبت المجاعات والأوبئة التى ألمت بمصر فى عصر سلاطين المماليك

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المرجع
٦٦٢هـ ١٢٢٥م	غلاء ناتج عن قصور النيل ، فى عصر السلطان الظاهر بيبرس أكل الناس أوراق اللفت والكرنب وأوراق الفول الأخضر .	السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٢٩٥ المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٦ / ص ٥٠٧
٦٧٢هـ ١٢٧٣م	ألم بمصر وباء وكان أكثر ضحاياه من النساء والأطفال .	المقريزى : السلوك جـ ١ ص٦١٢ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٠ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢٣ ورقة ٥٨٨ (مخطوط)
٦٩٤هـ ١٢٩٤م إلى ٦٩٥ هـ ١٢٩٥م	توقف النهر عن الزيادة فأعقب ذلك الغلاء والمجاعة التى تلاها الوباء الشامل حتى عجز الناس عن مواراة موتاهم وخلت القرى من سكانها .	المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٨٠٨ — ٨١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٩٧/٢٩٨ تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٢٤١ ، المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٧ — ٣٨ ابن أياس : بدائع الزهور جـ١ ص ١٣٤ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ورقة ٨٢ .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٧٠٩ هـ ١٣٠٩ م	فشت فى الناس أمراض حادة ، ولكنها لم تتسبب فى موت الكثيرين وصحب ذلك قصور النيل والغلاء بطبيعة الحال	المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٤٣ ، ابن أيبك : الدر الفاخر ص ١٦٣ / ١٦٤
٧١٦ هـ ١٣١٦ م	حدث الوباء عقب حالة جوية وصفها المقريزى بقوله أن ريحًا سوداء هبت وأعقبها مطر ثم الوباء بأرض أسوان وإسنا وأرمنت . هلك فيه خلق كثيرون وامتد الوباء إلى الاشمونين .	المقريزى : السلوك جـ١ ق٣ حوادث سنة ٧١٦ هـ
٧٢٠ هـ ١٣٢٠ م	حدث طاعون شديد « قل أن سلمت منه دار» .	السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٠١ ، تاريخ ابن الوردى ، جـ ٢ ص ٢٧٠
٧٣١ هـ ١٣٣٠ م	ألم بالبلاد « وباء يسير» .	ابن أيبك : الدر الفاخر ص ٣٥٨/٣٥٩
٧٣٦ هـ ١٣٣٥ م	توقف النهر عن الزيادة ، وأعقب ذلك مجاعة جعلت السلطان الناصر محمد ابن قلاون يأمر بفتح شونهم لإطعام الفقراء .	المقريزى : إغاثة الأمة ص ٤٠
٧٤٧ هـ ١٣٤٦ م	حدث الغلاء بمصر ، وقد حدث غلاء مماثل فى حلب أيضًا .	تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٣٤٩

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٧٤٩ هـ ١٣٤٨ م	الفناء الكبير أو الوباء الأسود وهو وباء شمل كل أرجاء الكرة الأرضية تقريباً نتيجة لزحف بعض الأمراض الوبائية من مشارق آسيا غرباً تجاه مصر وأوربا . وقد فتح بأعداد هائلة من المخلوقات ومن بينها الإنسان بطبيعة الحال .	المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ٣ ص ٧٧٠ حوادث ٧٤٩ هـ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ٣٠٣ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٢٠٤ — ٢٠٩ المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٢١ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢٤ حوادث ٧٤٩هـ .
٧٦١ هـ ١٣٥٩ م	انتشر الوباء بالقاهرة واستمر قائماً بالبلاد حتى عام ٧٦٢ هـ ومات فيه كثير من الأعيان .	السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٣٠٣ ، العينى : عقد الجمان جـ٢٤ ص ١١٨ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٣١١ .
٧٦٤ هـ ١٣٦٢ م	فشت الطواعين والأمراض الحادة بالناس فى القاهرة ومصر وعامة الوجه البحرى .	السلوك جـ ٣ : ق ١ ص٨١ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٠٣ .
٧٦٩ هـ ١٣٦٧ م	انتشر الوباء الرهيب فى القاهرة ومصر حيث بلغ عدد الموتى يومياً أكثر من مائة نفس واستمر قائماً يفتك الناس حوالى أربعة أشهر .	السلوك : جـ٣ ق١ ص١٦٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٠٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٥١ .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٧٧٥ هـ ١٣٧٣ م	توقف النهر عن الزيادة واستسقى الناس ومات عدد ضخم من ذوات الأربع وأعقب ذلك « الفناء » .	ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٢٩ .
٧٧٦ هـ ١٣٧٤ م	حدث نتيجة لعدم زيادة النيل أن حلت المجاعة فأعقبها الوباء الذى بلغ ضحاياه حوالى مائتين من الحشريين وخمسمائة من الطرحاء .	ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ٤٤ ، العينى : عقد الجمان ج ٢٤ ص ١٨٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٥ ، المقريزى : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٢٣٥ .
٧٧٧ هـ ١٣٧٥ م	نتج عن قصور النيل مجاعة ألجأت الناس إلى أكل الميتة والقطط والكلاب ، ويقال أن بعضهم أكل بعضاً بل إن البعض أكل أولاده ، وباع كثير من الفقراء أولادهم وافتقر خلق كثيرون وتلى ذلك انتشار الوباء .	ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ١٤٩ .
٧٧٩ هـ ١٣٧٧ م	أهلت هذه السنة والأمراض فى الناس فاشية ومات جماعة من الطاعون .	المقريزى : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٣٠٣ .
٧٨٢ هـ ١٣٨٠ م	بدأ الوباء ولكنه كان فى الإسكندرية فقط .	أنباء الغمر ج١ ص ١٤٩ .
٧٨٣ هـ ١٣٨١ م	انتشر الطاعون من الإسكندرية إلى القاهرة وبلغ عدد الموتى فى القاهرة ثلاثمائة ميت .	السيوطى : حسن ج ٢ ص ٣٠٦ ، ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ١٨١ ، المقريزى : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٤٠٩ .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م	وقع الغلاء بالقاهرة .	السيوطى : حسن المحاضرة ج٢ ص ٣٠٦ ، ابن حجر : انباء الغمر ج١ ص ١٨١ .
٧٨٧ هـ ١٣٨٥ م	وقع الغلاء بمصر .	ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٢٢٣ .
٧٨٨ هـ ١٣٨٦ م	وقع وباء بالإسكندرية .	المرجع السابق ج ١ ص٢٣٥ .
٧٩٠ هـ ١٣٨٨ م	وقع بالقاهرة وضواحيها طاعون قضى على على عدد من الناس وظل هذا الوباء متفشيًا فى الناس حتى عام ٧٩١ هـ .	ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج١١ ص ٢٥١ ، ابن حجر : انباء الغمر ج١ ص ٢٦٦ ، المقريزى : السلوك ج٣ص ٥٧٥ ، ٦٠٠ .
٧٩٤ هـ ١٣٩١ م	فى هذا العام ألم بالبقر مرض وبائى قضى على عدد هائل حتى كاد أن يفنى منها إقليم مصر . . » .	السيوطى : حسن المحاضرة ج٢ ص ٣٠٦ ، المقريزى : السلوك ج٣ ق٢ ص ٧٦٩ .
٧٩٥ هـ ١٣٩٢ م	وقع وباء بالإسكندرية .	ابن حجر : انباء الغمر ج١ ص ٣٥٥ .
٧٩٦ هـ ١٣٩٣ م	يذكر المقريزى أن مجاعة متقطعة ألمت بالبلاد ما بين عامى ٧٩٦ هـ و ٨٠٨ هـ صحبها الوباء فى كثير من مراحلها حتى حل عام ٨٠٨ هـ ليجد أن توالى المجاعات والأوبئة قد أخرب البلاد ، وقضى على أكثر من نصف السكان .	المقريزى : اغاثة الأمة : ص ٤١ — ٤٣ .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٧٩٧ هـ ١٣٩٤ م	« وقع الوباء وتوقفت أحوال الناس من قلة المكاسب » .	المقريزى : السلوك ج ٣ / ق ٢ ص ٨٢٦ .
٧٩٩ هـ ١٣٩٦ م	وقع الوباء واستمر ثلاثة شهور .	العينى : عقد الجمان ج ٢٥ ورقة ٤٠ .
٨٠٠ هـ ١٣٩٧ م	وقع الوباء بالوجه البحرى والقاهرة .	المقريزى : السلوك ج ٣ / ق٢ ص ٨٩١ ، ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٤٣٢ .
	السعال والباردة » وكان .	العينى : عقد الجمان ج ٢٥ ص ١٠٠ ، ابن حجر انباء الغمر ج ١ ص ٥٠١ ، المقريزى : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١٠٠٣ .
	فعت وحل	العينى : عقد الجمان ج٢٥ ص ١٩٨ .
	ثير من	ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٦٣١ ، ٦٣٢ ، المقريزى : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١١١٩ .
	غيرهم	ابن حجر : انباء الغمر ج١ ص ٦٤٠ .
	ببلاد غالب	ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج١٣ ص ٥٢ .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٨١٠ هـ ١٤٠٧ م	انتشر الطاعون بالبلاد .	السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٣٠٨ .
٨١٢ هـ ١٤٠٩ م	انتشر الطاعون بمصر كما انتشر بحماه وطرابلس .	ابن حجر : أنباء الغمر جـ ٢ ص ٧ .
٨١٣ هـ ١٤١٠ م	انتشر الطاعون بمصر وقضى على عدد كبير من الناس .	ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٣ ص ١٧٨ .
٨١٦ هـ ١٤١٣ م	انتشر الطاعون بمصر .	السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٠٩ ، ابن حجر : أنباء الغمر جـ ٢ ص ٥٧ .
٨١٨ هـ ١٤١٥ م	وقع الطاعون أيضًا فى هذه السنة بمصر ، وقد صحب ذلك غلاء عظيم ، وانتشار الفتن والاضطرابات .	السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٠٩ ، ابن حجر : أنباء الغمر جـ ٢ ص ٧٧ .
٨١٩ هـ ١٤١٦ م	انتشر الطاعون بمصر والقاهرة ثم امتد ليشمل كل البلاد ، وصحب ذلك الغلاء .	العينى : عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٤٢٤ ، السيوطى حسن المحاضرة جـ٢ ص ٣٠٩ ابن حجر: أنباء الغمر جـ٢ ص٩٢.
٨٢٠ هـ ١٤١٧ م	انتشر الوباء بالإسكندرية ودمياط .	ابن حجر : أنباء الغمر جـ ٢ ص ١١٦ .
٨٢٢ هـ ١٤١٩ م	انتشر الطاعون فى أنحاء البلاد ابتداء من القاهرة ثم امتد لينتشر فى الشرقية والغربية .	السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٠٩ ، ابن حجر : أنباء الغمر جـ ٢ ص ١٤١ ، ابن تغرى بردى : جـ ٦ ص ٣٩٤ (كاليفورنيا) .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٨٢٣ هـ ١٤٢٠ م	انتشر الطاعون فى الفسطاط والإسكندرية	ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ١٥٨ ، العينى : عقد الجمان ج٢٥ ورقة ٤٩٨ .
٨٢٨هـ ١٤٢٤ م	انتشر الوباء فى دمياط وتسبب فى موت عدد كبير من الرقيق والأطفال .	ابن حجر : انباء الغمر ج ٢ ص ١٩٦ .
٨٣١ هـ ١٤٢٧ م	كان بلاد الصعيد الأعلى وباء شديد ومرض حاد مات منه كثيرون .	ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ٢٤٤ .
٨٣٣ هـ ١٤٢٩ م	انتشر الوباء ليشمل غالب أقاليم الوجه البحرى بعد القاهرة ، وقد عاصره المورخ أبو المحاسن بن تغرى بردى وقال إن بيوتاً كثيرة خلت من سكانها مع كثرتهم وأن الإقطاع الواحد كان ينتقل فى مدة قليلة بين ثلاثة أجناد وأربعة وخمسة .	ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٥٣ (كاليفورنيا) العينى : عقد الجمان ج٢٥ ورقة ٦٣٠ ، ابن حجر : أنباء الغمر ج٢ ص ٢٥٨ ، السيوط حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٩ .
٨٤١ هـ ١٤٣٧ م	انتشر الطاعون بالقاهرة ومصر .	ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧٥٨ (كاليفورنيا) ، ابن حجر أنباء الغمر ج٢ ص ٣٥٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٩ .
٨٤٨ هـ ١٤٤٤م	بدأ الطاعون ينتشر منذ أواخر سنة ٨٤٧ هـ واستمر قائماً حتى سنة ٨٤٨ هـ وكثر موت الأطفال والرقيق .	ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٣١ (كاليفورنيا) ، ابن حجر : أنباء الغمر ج٢ ص ٤٢٥ .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٨٥٢ هـ ١٤٤٨ م	ظهر الطاعون فى الديار المصرية .	ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ١٦٤ ط . (كاليفورنيا) .
٨٥٣ هـ ١٤٤٩ م	حل عصر الغلاء بسبب قصور النيل وموت كثير من الأبقار لعدم وجود العلف .	المرجع السابق ص ١٧٣ — ١٧٤ .
٨٥٥ هـ ١٤٥١ م	حل الغلاء بمصر وهو امتداد للغلاء السابق ذكره .	المرجع السابق ص ٢١٩ .
٨٦٤هـ ١٤٥٩ م	انتشر الطاعون بالقاهرة ومصر ثم انتشر إلى الضواحى والقرى ومات فيه عدد ضخم من السكان .	المرجع السابق ٥٢٨ .
٨٨٨ هـ ١٤٨٣م	فشت فى الناس أمراض حادة ومات بذلك جماعة كثيرة .	ابن أياس : بدائع الزهور جـ٢ ص ٢١٧ (ط . بولاق)
٨٩٢ هـ ١٤٨٦ م	حلت بالبلاد مجاعة وكان يموت كل يوم عدد كبير من الناس .	المرجع السابق ص ٢٥١ .
٨٩٧هـ ١٤٩١ م	وقع الطاعون فى مصر وأهلك عدداً كبيراً من السكان بلغوا حوالى مائتى ألف إنسان .	ابن أياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٥ (٧ . بولاق) .
٨٩٩هـ ١٤٩٣ م	هبط النيل وشرقت أغلب الأراضى الزراعية ونتج عن ذلك الغلاء .	المرجع السابق : ص ٣٢٧ .
٩٠٣ هـ ١٤٩٧ م	تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية .	المرجع السابق ص ٣٣٩ .
٩٠٤ هـ ١٤٩٨ م	عاد الطاعون مرة أخرى ولكنه أخف وطأة .	المرجع السابق ص ٣٥٤ .

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الوباء	المراجع
٩٠٩ هـ ١٥٠٣م	بدأ الطاعون خفيفاً ثم غاب ثمانية أشهر وعاد سنة ٩١٠ هـ بصورة أشد .	ابن أياس بدائع الزهور : جـ ٤ ص ٦٦ (طبعة محمد مصطفى) .
٩١٢ هـ ١٥٠٦ م	ظهر الطاعون ببلاد الصعيد .	المرجع السابق : ص ١٠٩
٩١٨ هـ ١٥١٢ م	ظهر الطاعون بالإسكندرية ورشيد وبعض السواحل ولم يدخل إلى مصر والقاهرة .	المرجع السابق ص ٢٩٥ .
٩١٩ هـ ١٥١٣ م	ظهر الطاعون بمصر ومات به جماعة من العبيد والجوارى واشتد بدخول الحماسين وفتك بالناس فتكاً ذريعاً .	المرجع السابق : ص ٢٩٦ إلى ص ٢٩٩ .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً – المصادر الأصلية :

(أ) المخطوطات :

١ – ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين بن على) ت ٨٥٣ هـ :

* إنباء الغمر بأنباء العمر (جزءان دار الكتب ٢٤٧٦ تاريخ) .

٢ – ابن أياس (أبو البركات محمد بن أحمد) ت ٩٣٠ هـ :

* نشق الأزهار فى روض المعطار (دار الكتب ٤٣٩ جغرافياً) .

٣ – ابن أيبك الدوادار (أبو بكر عبد الله بن أيبك) :

* الجزء الثامن من « كنز الدرر وجامع الغرر » وعنوانه « الدرة الزكية فى تاريخ دولة الملوك التركية » (دار الكتب ٤٦٤٣ تاريخ) .

٤ – الجوجرى (شمس الدين محمد الجوجرى الشافعى) ت ٨٦٤ هـ :

* منظومة الجوجرى (١٢٠ بيتاً دار الكتب ٥٧٠ جغرافياً)

٥ – الحجازى (بدر الدين أحمد بن محمد بن على) ت ٨٧٥ هـ :

* نيل الرائد فى النيل الزائد (دار الكتب ٣٨٠ جغرافياً) .

٦ – السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) ت ٩١١ هـ :

* كوكب الروضة (الخزانة التيمورية ٥٥٤ تاريخ) .

* الكلام على النيل (دار الكتب ٣٨١ جغرافياً) .

٧ – العينى (بدر الدين محمود) ٨٥٥ هـ :

* عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (٢٥ جزءاً) (مخطوط مصور بدار الكتب) .

٨ – المنوفى (شهاب الدين أحمد بن محمد) ت ٩٣١هـ :

* الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد (دار الكتب ٦٦ جغرافياً) .

٩ – المحلى (جلال الدين محمد بن أحمدبن إبراهيم) ت ٨٦٤هـ :

* مبدأ النيل على التحرير (دار الكتب ٣٨٠ جغرافياً) .

١٠ – النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٨٣٣هـ :

* نهاية الأرب فى فنون الأدب (من جـ ٢٧ إلى ٣٠ دار الكتب ٥٤٩ معلومات عامة) .

١١ – الوطواط الكتبى (محمد بن إبراهيم بن يحيى بن على) ت ٧١٨هـ :

* مباهج الفكر ومناهج العبر ٤ أجزاء (نسخة مصورة بدار الكتب برقم ٣٥٩ علوم طبيعية) .

(ب) الكتب المطبوعة :

١ – ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) ت ٨٧٤هـ :

* النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .

(طبعة دار الكتب حتى الجزء ١٢ ثم جـ ١٣ تحقيق محمد فهيم شلتوت ، وطبعة كاليفورنيا ابتداء من حوادث سنة ٨١٥هـ) .

٢ – ابن أياس (أبو البركات محمد بن أحمد) ت ٩٣٠هـ :

* كتاب تاريخ مصر المسمى « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ٣ أجزاء طبعة بولاق ١٣١٢هـ ثم جـ ٤ ، جـ ٥ نشرها الدكتور محمد مصطفى (الطبعة الثانية) .

٣ – ابن زنبل (أحمد الرمال) ت٩٦٠هـ :

* آخرة المماليك (نشر عبد المنعم عامر القاهرة ١٩٦٢م) .

٤ – ابن مماتى (الأسعد بن مماتى الوزير الأيوبى) ت ٦٠٦هـ :

* قوانين الدواوين (تحقيق عزيز سوريال عطيه القاهرة ١٩٤٣م) .

٥ – ابن بطوطة (عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى ثم الطنجى :

* تحفة النظار فى غرائب الأنصار وعجائب الاسفار (باريس ١٨٨٠م) .

٦ – ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد) ت ٨٣٧هـ :

* المدخل إلى الشرع الشريف (٤ أجزاء) القاهرة ١٩٢٩م .

٧ – ابن جبير :

* رحلة ابن جبير (نشر الدكتور حسين نصار) .

٨ – ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين بن خليل) ت٨٢٧هـ :

* زبدة كشف الممالك وبيات الطرق والمسالك (باريس ١٨٩٤م) .

٩ – ابن الجيعان (شرف الدين يحيى بن المقر) ت ٨٨٥هـ :

* التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية (القاهرة ١٨٩٨م) .

١٠ – ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى) ت ٨٠٩ هـ :

* الانتصار لواسطة عقد الأنصار جـ٤ ، جـ٥ (نشر فولر بولاق ١٣١٤هـ) .

١١ – ابن أيبك الدوادار (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك) :

* الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر « وهو الجزء التاسع من كنز الدرر » نشر رويمر القاهرة ١٩٦٠م .

١٢ – ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) ت ٨٠٧هـ :

الأجزاء من ٧ – ٩ نشر د. قنسطنطين رزيق ونجلاء عز الدين بيروت ١٩٤٢م .

١٣ – ابن عبد الظاهر (محيى الدين) :

* الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية .

الجزء الثالث نشر الكس موبرج ١٩٠٢م

* تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور .
نشر د. مراد كامل القاهرة ١٩٦١م

١٤ — ابن الوردى (سراج الدين أبو حفص عمر) ت ٧٥٠ هـ :
* خريدة العجائب وفريدة الغرائب (القاهرة ١٢٨٠) هـ .
* تاريخ ابن الوردى القاهرة ١٢٨٥ هـ .

١٥ — ابن ظهيرة :
* الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة .
نشر مصطفى السقا وكامل المهندس القاهرة ١٩٦٩ .

١٦ — ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشى) ت ٧٢٩ هـ :
* معالم القربة فى أحكام الحسبه (كمبردج ١٩٣٧) م .

١٧ — ابن خرداذبة (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله) ت ٣٠٠ هـ :
* المسالك والممالك .

١٨ — أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر) ت ٧٣٢هـ :
* تقويم البلدان (باريس ١٨٤٠م) .

١٩ — البغدادى (عبد اللطيف بن محمد بن يوسف) :
* الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر
نشر جوزيف هوايت ١٧٨٩م .

٢٠ — السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) :
* حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة (جزءان) نشر محمد أبو الفضل إبراهيم

٢١ — السخاوى (محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر) ت ٩٠٢ هـ :
* التبر المسبوك فى ذيل السلوك (طبعة بولاق ١٨٩٦م) .

٢٢ — السبكى (تاج الدين عبد الوهاب) ت ٧٧١ هـ :

* معيد النعم ومبيد النقم (القاهرة ١٩٤٨م) .

٢٣ ـــ العبدرى (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الحيحى) :

* رحلة العبدرى (الرحلة المغربية نشر محمد الفاسى الرباط ١٩٦٨م) .

٢٤ ـــ العمرى (ابن فضل الله) :

* مسالك الابصار فى ممالك الابصار (الجزء الأول نشر أحمد زكى القاهرة ١٩٤٢م) .

٢٥ ـــ القلقشندى (شهاب الدين أحمد بن على) ت ٨٢١ هـ :

* صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (١٤ جزءاً طبعة دار الكتب ١٩١٣م) .

٢٦ ـــ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) ت ٨٥٤ :

* إغاثة الأمة بكشف الغمة نشر د. محمد مصطفى زيادة ، د. جمال الدين الشيال ـــ القاهرة ١٩٤٠م .

* المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (طبعة بولاق ١٢٧٠هـ) .

* السلوك لمعرفة دول الملوك (قام الدكتور محمد مصطفى زيادة بنشر الجزء الأول والثانى فى ستة أقسام وقام الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور بنشر بقية الكتاب » .

٢٧ ـــ النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٢هـ :

* نهاية الأرب فى فنون الأدب (طبعة دار الكتب حتى الجزء ١٨) .

٢٨ ـــ النابلسى (أبو عثمان النابلسى الصفدى الشافعى) :

* تاريخ الفيوم وبلاده (القاهرة ١٨٩٨م) .

٢٩ ـــ مقدمة ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد المغربى ت ٨٠٨ هـ)
القاهرة ١٩٣٠ م

٣٠ ـــ « رحلة تافور فى عالم القرن الخامس عشر »
ترجمة وتقديم الدكتور حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٨م) .

ثانياً ــ المراجع العربية الحديثة :

١ ــ أمين سامى : تقويم النيل ــ القاهرة ١٩١٦م .

٢ ــ الدكتور جمال حمدان : شخصية مصر ــ ١٩٦٧ (دار الهلال) .

٣ ــ الدكتور حسنين ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين (جامعة القاهرة ١٩٦٤م) .

٤ ــ الدكتور حسين فوزى : سندباد مصرى (الطبعة الثانية) القاهرة ١٩٦٩م .

٥ ــ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور :

* المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٦٢م) .
* العصر المماليكى فى مصر والشام (القاهرة ١٩٦٥م) .

٦ ــ الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف :

* مصر فى عصر الاخشيديين (القاهرة ١٩٥٠م) .
* مصر فى عصر الولاة (العدد ٢٤١ الألف كتاب) .

٧ ــ الدكتور محمد عوض محمد : نهر النيل (ط . خامسة) القاهرة ١٩٦٣م .

٨ ــ الدكتور محمود رزق سليم : النيل فى عصر المماليك .

٩ ــ الدكتور محمد مصطفى زيادة :

* بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر .
* مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٤ ط ١٩٣٨م .

ثالثاً ـ المراجع الأجنبية :

1. Cahen (C.) "Le régime des impots dans le Fayyum Ayyubidé". Arabica, iii (1956), PP : 8 - 30.

2. Dopp (P.H.) : ,,L'Egypte au Commencement du quanziéme siecle" (Le Caire 1950).

3. Lane - poole (S.) : "A history of Egypt in the Middle Ages" (London 1901).

4. Muir (W.) : "The Mameluke, or slave dynasty of Egypt (Amesterdam 1968).

5. Popper (W.) : "A history of Egypt". (2 Vols.) (California 1954).

6. Quatre mére (M.) : "Histoire des Sultans Mamlouks de L'Egypte" . (2 Vols.) (Paris 1837).

7. Encyclopaedia of Islam.
Art. Egypt, Al Nil, Kus, Assuan, Al Faywom and Art. Dumiat.